جايتو جازدانوف

طيف ألكسندر ولف

رواية

«إنه أكثر بكثير من قطعة فنية تاريخية، إنه عمل أدبي فاتن»
«إندبندنت أون صنداي»

طيف ألكسندر ولف

جايتو جازدانوف

طيف ألكسندر ولف

ترجمها عن الروسية

هَفال يوسف

لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي : Призрак Александра

Вольфа

جايتو جازدانوف، 1947-1948

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

على الرغم من كل الجهود المبذولة، لم يستطع الناشر التأكد

من مالك حقوق النص الروسي الأصلي. وهو يرحب

بأي معلومات إضافية عن هذه المسألة .

حقوق الترجمة © هَفال يوسف

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .

نُشر هذا الكتاب بدعم كريم من برنامج ترانسكريبت في مؤسسة ميخائيل بروخوروف

جازدانوف، جايتو، 1903-1971 .

طيف ألكسندر ولف: رواية / جايتو جازدانوف؛ ترجمة هَفال يوسف - الكرمة للنشر، 2018 .

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الذكرى الأشد إيلامًا بين ذكرياتي كلها، وبين كمٍّ المشاعر التي لا تُحصى في حياتي، هي ذكرى جريمة القتل الوحيدة التي ارتكبتها. فمنذ لحظة حدوثها لا أذكر يومًا واحدًا لم أشعر فيه بالأسف لذلك. لم أكن عرضة لأي عقوبة قط، ذلك أنها حدثت في ظروف استثنائية جدًّا، وكان واضحًا أنني لم يكن في مقدوري التصرف على نحو آخر. فضلاً عن أن ما من أحد غيري عَلِم بها. لقد كانت حادثة من حوادث الحرب الأهلية التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى؛ وفي المجرى العام للأحداث آنذاك كان في الإمكان اعتبارها تفصيلاً تافهًا، لا سيما أن نتيجتها النهائية، خلال الدقائق أو الثواني التي سبقتها، لم تكن تعني سوانا نحن الاثنين ـ أنا

وشخصًا آخر لا أعرفه. ثم بقيت وحدي. لم يشارك في ذلك أيُّ أحد آخر .

ليس في مقدوري وصفُ ما حدث قبل ذلك بدقة، لأن كل شيء جرى بصورة مبهمة وغامضة، كأي معركة أخرى تقريبًا في أي حرب، حيث المشاركون فيها هم أقل الناس قدرة على تصوُّر ما جرى فعلاً. حدث ذلك في الصيف، في جنوب روسيا. سارت القوات أربعة أيام متتالية من دون توقف ومن دون انضباط، ترافقها أصوات الرصاص والمعارك المتفرقة. لم تكن لديَّ أي فكرة عن الوقت، بل ولم أكن قادرًا حتى على تحديد المكان الذي أنا فيه بالضبط. أذكر فقط المشاعر التي شعرت بها، والتي قد يشعر بها المرء في ظروف أخرى أيضًا، كالشعور بالجوع والعطش والإنهاك، إذ كان قد مضى عليَّ يومان ونصف اليوم من دون نوم. كان الجو شديد القيظ، وكانت تفوح في الهواء رائحة دخان أخذت تتبدد، فقد كنا قد خرجنا من الغابة قبل ساعة، وكان أحد أطرافها يحترق، وهناك، حيث لا يصل نور الشمس، كان ظلٌّ ضخم بلون القش يتمدد ببطء. كانت تراودني رغبة هائلة في النوم، وبدا لي آنذاك أن منتهى السعادة في الدنيا إنما يكمن في التوقف والاستلقاء على العشب المحروق والاستغراق في النوم للحال ونسيان كل شيء تمامًا. إلا أن هذا بالذات كان مستحيلاً، وواصلت المسير عبر عُكارة الحَر والنعاس، وأنا أبلع ريقي وأفرك من حين إلى آخر عينَيَّ الملتهبتين جراء القيظ وعدم النوم .

أذكر أنني، بينما كنا نجتاز دغلاً صغيراً، أسندت ظهري إلى شجرة

للحظة، كما بدا لي، وغفوت واقفًا وسط إطلاق النار الذي اعتدتُه منذ أمد بعيد، ولما فتحت عينَيَّ لم يكن ثمة أحد من حولي. عبرت الدغل ورحت أسير في الطريق، في الاتجاه الذي افترضت أن رفاقي قد ساروا فيه. في اللحظة نفسها تقريبًا أدركني قوزاقيٌّ على صهوة حصان كُميت سريع، ولوح لي بيده وصاح بكلام غير مفهوم. وبعد قليل من الوقت حالفني الحظ في العثور على فرس هزيلة دهماء، قُتل صاحبها فيما يبدو، ملجومة بلجام وعلى ظهرها سرج قوزاقي، وكانت ترعى العشب وتهز ذيلها الطويل قليل الشعر بلا توقف. وما إن اعتليتها حتى انطلقَتْ ترمح بسرعة .

سرت في طريق مقفرة متعرجة، وكنت أصادف من حين إلى آخر أجَمات قليلة الأشجار تحجب عني بعض المنعطفات. كانت الشمس في كبد السماء، وكان صفير الهواء أشبه بصلصلة الجرس لشدة الحر، وعلى الرغم من أنني كنت منطلقًا بسرعة فإنني احتفظت بذكرى مبهمة عن مدى بطء كل ما جرى. كانت رغبتي الشديدة في النوم لا تزال على حالها، وتملأ جسدي وإدراكي، ولهذا بدا لي كل شيء منهكًا ومديدًا، مع أن الأمور لم تكن كذلك بالطبع. لم تكن ثمة معارك، وكان السكون مخيمًا، ولم أرَ أحدًا لا في الأمام ولا في الخلف. وفي أحد المنعطفات، الملتف بزاوية قائمة تقريبًا، إذا بفرسي المنطلقة بسرعة تكبو على الأرض بقوة وفي لمح البصر. سقطتُ معها على أرض ناعمة معتمة، لأن عينَيَّ كانتا مغمضتين، لكنني تمكنت أن أحرر قدمَيَّ من الرِّكاب ولم أُصَب بأي أذى تقريبًا. أصابت الرصاصة فرسي في أذنها اليمنى وهشمت رأسها. نهضت واقفًا على قدمَيَّ والتفتُّ خلفي فرأيت

فارسًا قادمًا من بعيد، يخب ببطء وتثاقل، كما بدا لي، على حصان أبيض ضخم. أذكر أنني كنت قد فقدت بندقيتي منذ وقت طويل، ولعلي نسيتها في الدغل حين غفوت، ولكن كان لا يزال في حوزتي مسدس، وجدت صعوبة في إخراجه من قِرابه الضيِّق الجديد. بقيت واقفًا بضع ثوان، والمسدس في يدي. كانَ السكون مخيمًا إلى درجة أنني كنت أسمَع بدقة متناهية قرقعة حوافر الحصان على الأرض المتشققة من القيظ وتنفُّسه الثقيل، ورنينًا شبيهًا برنين ارتطام سلسلة صغيرة بحلقات حديدية. ثم رأيت الفارس وهو يلقي عنان الحصان ويرفع إلى كتفيه البندقية التي كان لا يزال حتى تلك اللحظة يمسكها بيده وسبطانتها إلى أسفل. في تلك اللحظة بالذات أطلقت النار، فاهتز الفارس وهو على السرج، ثم تزحلق عن الحصان ببطء وهوى على الأرض. بقيت واقفًا بلا حراك قرب جثة فرسي دقيقتين أو ثلاثًا، وكنت لا أزال راغبًا في النوم بشدة وأشعر بذاك التعب المضني نفسه. إلا إنني تمكنت من التفكير في أنني لا أدري ما ينتظرني وما إن كنت سأبقى على قيد الحياة مدة طويلة بعد؛ ودفعتني رغبة لا تقاوَم في رؤية الشخص الذي قتلته إلى التوجه نحوه. لم أجتز في حياتي مسافة بالصعوبة التي اجتزت بها الخمسين أو الستين متراً التي كانت تفصلني عن الفارس القتيل، لكنني مع ذلك رحت أمشي ببطء على الأرض المتشققة من شدة القيظ. أخيراً صرت بجواره تمامًا. كان في قرابة الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر، وكانت قبعته قد طارت جانبًا، وكان رأسه الأشقر مائلاً جانبًا على الطريق المغبرة. كان رجلاً وسيمًا جدًّا. انحنيت فوقه فرأيت أنه يحتضر، وكانت فقاعات زبد وردي اللون تتدحرج وتنفجر على شفتيه. فتح عينيه الزائغتين من دون أن يقول شيئًا

ثم أغمضهما من جديد. وقفت فوق رأسه ونظرت إلى وجهه، وأنا لا أزال أمسك بالمسدس الذي لم أعد بحاجة إليه بأصابعي الخَدِرة. فجأة حملت إليَّ لفحة من الهواء الساخن صوت وقع حوافر بضعة خيول من بعيد يُسمع بالكاد. إذّاك تذكرت الخطر الذي قد يحيق بي. أرهف حصان القتيل الأبيض أذنيه متحسسًا الخطر ووقف على بضع خطوات منه. كان حصانًا أصيلاً هائل الحجم، ناعم الملمس ونظيفًا، دَكَن ظهره بعض الشيء جراء العرق. كان يتميز بسرعة وقدرة على التحمل استثنائيتين، وقد بعته قبل أن أغادر روسيا ببضعة أيام لمستوطن ألماني زودني بكمية كبيرة من المؤونة ودفع لي مبلغًا كبيراً من المال الذي لا يساوي شيئًا. أما المسدس الذي أطلقت منه النار ـ وكان مسدسًا رائعًا من نوع «بارابيلوم» ـ فقد رميته في البحر، ولم يبقَ لي من ذلك كله سوى ذكرى مؤلمة تتعقبني في كل مكان يحملني إليه القدر. غير أنها، بمرور الوقت، أخذت تبهت شيئًا فشيئًا، وفي آخر الأمر لم أعد أشعر تقريبًا بالأسف المؤلم الذي لا علاج له، كما كانت الحال في البداية. لكنني لم أستطع نسيان ذلك قط. مرات كثيرة ـ بغض النظر عما إن كان ذلك يحدث في الصيف أم الشتاء، على شاطئ البحر أم في عمق القارة الأوروبية ـ كنت أغمض عينَيَّ، ذاهلاً عن كل شيء، وفجأة ينبثق من أعماق ذاكرتي من جديد ذاك اليوم القائظ في جنوب روسيا، وتعود إليَّ كل المشاعر التي شعرت بها آنذاك بالقوة السابقة نفسها. كنت أرى من جديد الظل الوردي-الرمادي الهائل لحريق الغابة وانتقاله البطيء في فرقعة أغصان الأشجار، وأشعر بذاك التعب المضني الذي لا يُنسى وبتلك الرغبة التي لا تقاوم في النوم، وأشعة الشمس التي لا ترحم، وصفير القيظ، وأخيراً الذكرى الخرساء لأصابع يدي اليمنى المتعلقة

بثقل المسدس، والإحساس بمقبضه الخشن الذي انطبع على جلدي إلى الأبد، والتحليق السريع لذبابة سوداء أمام عيني اليمنى ـ ومن ثم ذاك الرأس الأشقر على الطريق الرمادية الغبراء، والوجه المتغير جراء دنوِّ الموت؛ ذاك الموت نفسه الذي استدعيته، أنا بالذات، منذ لحظة، من المستقبل المجهول .

كنت في السادسة عشرة من العمر عند حدوث ذلك، وبالتالي فإن عملية القتل هذه كانت بداية حياتي الخاصة، ولست متأكدًا حتى من أنها لم تترك أثرها لاإراديًّا في كل ما قُدِّر لي معرفته ورؤيته فيما بعد. في كل الأحوال، الظروف التي رافقتها ورافقت كل ما ارتبط بها كلها انبثقت أمامي بمنتهى الوضوح بعد سنوات كثيرة في باريس. حدث هذا لاحقًا بسبب وقوع مجموعة قصصية، لكاتب إنجليزي لم أكن قد سمعت باسمه حتى ذلك الوقت، في يديَّ. كان عنوان المجموعة القصصية: «آيل كام تومورو» ـ على اسم القصة الأولى. كانت القصص ثلاثًا ليس إلا: «سآتي غدًا»، و«السمكات الذهبية»، و«مغامرة في السهب»، «ذي أدفنتشر إن ذا ستب». كانت الكتابة جيدة جدًّا، وكان رائعًا بصورة خاصة إيقاع القَص السلس الذي لا خلل فيه والأسلوب المتميز في رؤية الأمور بشكل مختلف عما يراها به الآخرون. بيد أن لا «سآتي غدًا» ولا «السمكات الذهبية» استطاعتا إثارة اهتمامي الشخصي، باستثناء ما قد تثيرانه لدى أي قارئ آخر بصورة طبيعية. «سآتي غدًا» كانت قصة فكاهية عن امرأة خائنة، وعن أكاذيبها غير الموفقة والملابسات التي تعقبها. أما «السمكات الذهبية» فتروي حادثة جرت في نيويورك. إنها، في الحقيقة، عبارة عن حوار بين رجل وامرأة

ووصف لأحد الألحان الموسيقية؛ حيث نسيت الخادمة رفع حوض السمك الصغير عن التدفئة المركزية، فراحت الأسماك تقفز من المياه التي تغلي وترتطم بالسجادة ميتة، فيما المتحاوران لم يلحظا ذلك، فقد كانت هي منشغلة بالعزف على البيانو، وهو بالاستماع إلى عزفها. كان ما يثير الاهتمام في القصة يكمن في إدخال اللحن الموسيقي كتعليق عاطفي وغير قابل للدحض، وفي المشاركة غير الإرادية للسمكات الذهبية المرتطمة بالسجادة في ذلك .

لكن القصة الثالثة، «مغامرة في السهب»، أذهلتني. كان استهلالَ القصة سطرٌ مقتبس عن «إدجار آلان بو »:

«بنيث مي لاي ماي كوربس ويذ ذي أرو إن ماي تمبل »

ترقد تحتي جثتي مع سهم في الصدغ

هذا وحده كان كافيًا للفت انتباهي. لكنني عاجز عن نقل المشاعر التي تملكتني عندما قرأت القصة. كانت تدور حول حادثة من حوادث الحرب، وكانت مكتوبة من دون أي ذكر للبلد الذي جرت فيه، أو لجنسية المشاركين فيها، مع أن مجرد اسمها، «مغامرة في السهب»، يشير، فيما يبدو، إلى أنها لا بد أن تكون قد جرت في روسيا. تبدأ القصة على النحو التالي :

أفضل حصان امتلكته يومًا كان فحلاً أبيض الشعر، هجينًا، ضخمًا جدًّا، ويتميز بصورة خاصة بخطواته الواسعة العريضة. كان حصانًا

رائعًا إلى درجة أنني كنت أود مقارنته بواحد من الخيول التي يرد ذكرها في «سفر الرؤيا». فضلاً عن أنَّ هذا التشابه كان يكمن ـ بالنسبة إليَّ شخصيًّا ـ في أنني رمحتُ خَبَبًا على هذا الحصان بالذات لملاقاة موتي، عبر أرض ملتهبة من الحرارة، في يومٍ لم أعرف لحرارته مثيلاً في حياتي كلها .

وجدت في هذه القصة استرجاعًا دقيقًا لكل ما عايشته في أزمنة الحرب الأهلية البعيدة في روسيا، ووصفًا لتلك الأيام الحارة التي لا تُطاق، عندما حدثت أطول المعارك وأشدها قسوة. وصلت، أخيراً، إلى صفحات القصة الأخيرة؛ وقد قرأتها وأنا منقطع النفَس تقريبًا. ففيها تعرفتُ فرسي الدهماء ومنعطف الطريق حيث قُتلتْ. الشخص الذي تروى القصة على لسانه كان متأكدًا، في البداية، من أن الفارس الذي سقط مع فرسه قد أصيب إصابة بالغة، فقد أطلق عليه النار مرتين وبدا له أنه أصابه في المرتين. لست أفهم لِمَ لم ألحظ سوى طلقة واحدة. تابع المؤلف قائلاً :

لكنه لم يُقتل، بل يبدو أنه لم يُصب حتى، فقد رأيت كيف نهض واقفًا على قدميه؛ وبدا لي أنني لاحظت، في نور الشمس الساطع، اللمعان الداكن لمسدس في يده. لم تكن لديه بندقية؛ هذا أعرفه يقينًا .

واصل الحصان الفحل الأبيض خطوه الثقيل، وتوجه إلى حيث يقف الشخص بجمود غير مفهوم، حسبما كتب المؤلف، مشلولاً من الخوف ربما، والمسدس في يده. ثم أوقف المؤلف عَدْو الحصان

الجامح وأسند بندقيته إلى كتفه، لكنه فجأة، من دون أن يسمع صوت إطلاق الرصاص، شعر بألم مميت لا يدري أين وبظلمة ساخنة في عينيه. بعد قليل عاد إليه وعيه لدقيقة قصيرة ومتشنجة، وعندها سمع وقع خطوات تقترب منه، لكن كل شيء تلاشى في العدم في لحظة. ثم خلال فاصل زمني قصير، بينما بات يعاني سكرة الموت، شعر أن أحدهم يقف فوقه، لا يدري كيف .

بذلت جهودًا فوق طاقة البشر لأفتح عينَيَّ وأرى موتي أخيراً. لقد حلمت كثيراً بوجهه الحديدي المخيف بحيث إنني لم أكن لأخطئ، وعرفت دائمًا هذه الملامح المعروفة لي حتى أصغر التفاصيل. لكنني، لدهشتي، رأيت فوقي الآن وجهًا فتيًّا شاحبًا مجهولًا لي تمامًا، بعينين بدتا لي شاردتين ونعستين. كان، على الأرجح، ولدًا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، ذا وجه عادي وغير جميل ولا يعبرِّ عن شيء باستثناء التعب الواضح. ظل واقفًا على هذا النحو بضع ثوان، ثم وضع مسدسه في قِرابه وابتعد. حين فتحت عينَيَّ ثانيةً، وأدرت رأسي بآخر ما تبقَّى لي من قوة، رأيته على صهوة حصاني، ثم غبت عن الوعي ثانيةً ولم أفق من الغيبوبة إلا بعد بضعة أيام، في مستشفى عسكري. كانت طلقة المسدس قد خرقت صدري، أعلى قلبي بنصف سنتيمتر. لم يتسنَّ لحصاني الآتي من «سفر الرؤيا» إيصالي إلى الموت نفسه، لكنني أعتقد أن مسافة غير كبيرة جدًّا تبقت له لبلوغ الموت، وواصل رحلته لكن مع فارس آخر على ظهره. وكنت لأبذل الغالي والنفيس لمعرفة أين لقي كلاهما حتفه، ومتى، وكيف، وإن كان مسدس هذا الولد قد نفعه مرة أخرى، لإطلاق النار على طيف الموت. لا أعتقد، بالمناسبة، أنه

يجيد إطلاق النار، فهيئته لم تكن تدل على ذلك؛ وكونه أصابني كان، على الأرجح، مصادفة، لكنني، بالطبع، آخر من يحق له أن يلومه على ذلك. كما أنني ما كنت لألومه لأنني أعتقد أنه قُتل منذ زمن بعيد وتبخر في العدم ـ وهو على صهوة الحصان الأبيض ـ كآخر رؤيا لهذه المغامرة في السهب .

لم يبقَ لديَّ شك تقريبًا في أن مؤلف هذه القصة إنما هو ذاك الشخص المجهول الشاحب الذي أطلقت عليه النار ذات يوم. بدا لي أن تفسير تطابق الوقائع التام ـ بكل خصوصياتها المتميزة، وصولاً إلى شعر الحصان وتوصيفه ـ بأنه مجرد مصادفة أمر مستحيل. نظرت إلى غلاف الكتاب مرة أخرى: «آيل كام تومورو»، تأليف «ألكسندر ولف». قد يكون اسمًا مستعارًا بالطبع، لكن هذا لم يوقفني؛ فقد كان لا بدَّ لي من لقاء هذا الشخص. كذلك حقيقة أنه كاتب إنجليزي كانت أيضًا مثيرة للدهشة. يمكن لـ«ألكسندر ولف» بالطبع أن يكون مواطني ويجيد اللغة الإنجليزية بكفاءة بحيث لا يحتاج إلى الاستعانة بمترجم، كان هذا التفسير الأكثر احتمالاً. على أي حال، أردت استيضاح هذا كله بأي ثمن لأنني، في نهاية المطاف، كنت مرتبطًا بهذا الشخص، من دون أن أعرفه مطلقًا، منذ زمن بعيد جدًّا، وقوة ذكراه تخللت حياتي كلها. فضلاً عن أنه كان واضحًا، حسب قصته، أنه أيضًا يشعر نحوي باهتمام مماثل، بالتحديد لأن «مغامرة في السهب» لها معنى مهم جدًّا في حياته، ولعلها حددت مصيره بدرجة أكبر مما قدَّرت الذكرى التي لديَّ عنه ذلك الطيفَ المختفيَ الذي عكر صفو سنوات كثيرة من حياتي .

كتبت إليه رسالة، إلى عنوان دار النشر اللندنية التي أصدرت كتابه، عرضت فيها الوقائع التي كانت مجهولة له، وسألته أن يجيبني أين يمكننا أن نلتقي ومتى، إن كان هذا اللقاء يهمه، بالطبع، كما يهمني. مر شهر من دون أن أتلقى جوابًا. من الممكن، بالطبع، أنه رمى رسالتي في سلة المهملات من دون أن يقرأها، مفترضًا أنها مرسَلة من إحدى المعجبات بموهبته، وتتضمن رجاء بإرسال صورته موقَّعة، وأن يخبرها برأيه في روايتها التي سترسلها إليه أو تقرأها له شخصيًّا ما إن تتلقى منه جوابًا. بدا هذا محتملاً إلى حدٍّ ما أيضًا لأن الكتاب، بغض النظر عن البراعة الحقيقية التي كُتب بها والتي لا شك فيها، كانت فيه أيضًا، باعتقادي، جاذبية خاصة ما للنساء. إلا إنني لم أتلقَّ جوابًا في كل الأحوال .

بعد أسبوعين تمامًا على ذلك توفرت لي إمكانية غير متوقعة للسفر إلى لندن من أجل تحقيق صحفي صغير. بقيت هناك ثلاثة أيام وانتهزت الوقت للمرور بدار النشر التي طبعت كتاب «ألكسندر ولف».
استقبلني المدير، وكان رجلاً ممتلئ الجسم في قرابة الخمسين من العمر، يتمثل في شخصه شيء وسط بين المصرفي والبروفيسور، وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة. بسطت له باختصار سبب زيارتي له وأخبرته ببضع كلمات كيف قرأت «مغامرة في السهب» ولماذا أثارت هذه القصة اهتمامي .

ـ أود أن أعلم إن كان «مستر ولف» قد تلقى رسالتي .

قال المدير :

ـ «مستر ولف» ليس في لندن الآن، وليست لدينا، للأسف، إمكانية الاتصال به في الوقت الراهن .

قلت بشيء من الامتعاض :

ـ بدأ هذا يشبه رواية بوليسية. لن أهدر وقتك ولسوف أودعك. هل يمكنني أن آمل أن تذكِّر «مستر ولف» برسالتي متى ما اتصلتَ به مجددًا، في حال حدث ذلك ذات يوم؟

أجاب في عجالة :

ـ يمكنك أن تكون مطمئنًّا تمامًا، لكنني أود إضافة أمر جوهري آخر. أفهم أن اهتمامك بشخص «مستر ولف» اهتمام نزيه. لذا يجب أن أخبرك أن «مستر ولف » لا يمكن أن يكون ذاك الشخص الذي تقصده .

ـ كنت موقنًا بالعكس تقريبًا حتى الآن .

قال :

ـ كلا، كلا. فحسبما فهمت، يجب أن يكون مواطنك .

ـ هذا هو الاحتمال الأكبر .

ـ في هذه الحال هذا مستبعد تمامًا. فـ«مستر ولف» إنجليزي، وأنا أعرفه منذ سنوات ويمكنني أن أؤكد ذلك. فضلاً عن أنه لم يغادر إنجلترا قط أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، وكان يمضيها في فرنسا أو إيطاليا. لم يسافر أبعد من ذلك، ولعلي أعرف ذلك .

قلت :

ـ هذا كله سوء فهم إذن، مع أنه يذهلني .

ـ أما بخصوص قصة «المغامرة في السهب» فهي متخيَّلة من أول سطر إلى آخر سطر .

ـ في النهاية، هذا ليس مستحيلاً .

خلال الدقائق الأخيرة من الحديث كنت واقفًا أهمُّ بالمغادرة. المدير أيضًا نهض واقفًا عن مقعده وقال فجأة خافضًا صوته بشكل ملحوظ :

ـ «مغامرة في السهب» قصة مختلقة بالطبع. لكن لو كان الأمر حقيقيًّا يمكنني أن أقول لك إنك تصرفت بتهور لا يُغتفر. كان عليك أن تسدِّد أفضل. كان هذا سيخلص «مستر ولف» وبضع شخصيات أخرى من تعقيدات لا لزوم لها .

نظرت إليه في ذهول. ابتسم ابتسامة ممطوطة جدًّا بدت لي في غير محلها على الإطلاق .

ـ صحيح أنك كنت فتيًّا جدًّا والظروف تغفر لك عدم دقة تصويبك. ثم إن هذا كله، بالطبع ـ من طرف «مستر ولف» ـ مجرد عمل متخيَّل صادَف أنه يتطابق وواقعتك. أتمنى لك كل الخير. إن وصلتني أنباء سأبلغك بها. اسمح لي أن أضيف شيئًا أيضًا؛ فأنا أكبرك في السن بكثير وأعتقد أن لي بعض الحق في ذلك. أؤكد لك أنَّ تعارفك مع «مستر ولف»، في حال حدوثه، لن يجلب لك إلا الكدر ولن يكون بالأهمية التي تمنحها إياه عبثًا .

لم يكن في مقدور هذا الحديث ألا يترك لديَّ انطباعًا غريبًا جدًّا. فقد اتضح منه أن مدير دار النشر كانت له حسابات شخصية ما مع «مستر ولف» وأسباب حقيقية ـ أو متخيَّلة ـ لكرهه. فلومه إياي على عدم دقة التصويب بكفاءة خرج من شفتَيْ هذا الإنسان المسالم البدين بصورة غير متوقعة على الأقل. وبما أن الكتاب صدر قبل عامين، فلا بد من افتراض أن الأحداث التي جعلت المدير يغيِّر موقفه من «ولف» إنما جرت في هذا الفاصل الزمني بالتحديد. لكن هذا كله، بالطبع، لم يكن قادرًا على منحي أي تصور عن مؤلف المجموعة القصصية «سآتي غدًا». الشيء الوحيد الذي عرفته هو رأي مدير الدار السلبي، والمتحيز بوضوح فوق ذلك. قرأت الكتاب بإمعان مرة أخرى، لكن انطباعي لم يتغير: إيقاع القصة السلس والمندفع هو نفسه، دقة الوصف ذاتها، الجمع الدقيق نفسه الذي يقع عليه المرء مرة وإلى الأبد، فيما يبدو، بين المادة القصصية وتعليقات المؤلف القصيرة والمعبرة جدًّا .

لا يمكنني القول إنني تصالحت مع عدم إمكانية أن أعرف عن «ولف»

ما يهمني، لكنني لم أدر ببساطة كيفية القيام بذلك. لقد مضى شهر كامل منذ محادثتي اللندَنية الغريبة، ولم يكن لديَّ شك تقريبًا في أنْ ليس عليَّ الاتكال على جواب من «ولف»، ربما مطلقًا، أو قريبًا على أي حال، ولم أعد أفكر في الأمر تقريبًا .

كنت في ذلك الوقت أعيش وحيدًا تمامًا. ومن بين المطاعم التي كنت أتغدى وأفطر فيها ـ كانت أربعة مطاعم، في أماكن مختلفة من المدينة ـ كان ثمة مطعم روسي صغير، وكان الأقرب إلى منزلي وأرتاده بضع مرات في الأسبوع. ذهبت إلى هناك عشية عيد الميلاد قرابة الساعة العاشرة مساءً. كانت الطاولات كلها مشغولة، ولم يكن هناك سوى مكان فارغ واحد، في أبعد ركن، حيث كان يجلس رجل كبير السن يرتدي حُلة العيد، وكنت أعرفه جيدًا في الشكل، فقد كان من الرواد الدائمين لهذا المطعم. كان يحضر دائمًا مع سيدات مختلفات، يصعب تحديد أعمالهن: إن كانت ممثلة، فممثلة سابقة، وإن كانت مغنية، فقد تلف صوتها منذ وقت قريب، وإن كانت مجرد عاملة في مطعم، فلم يمضِ على زواجها إلا بعض الوقت. كان يتمتع بسمعة «دون جوان»، وأظنَ أن النجاح كان يحالفه فعلًا، على الأرجح، وسط نساء هذه الحلقة. لذا دُهشت بصورة خاصة لكونه بمفرده في يوم كهذا. لكن في كل الأحوال عُرض عليَّ مكان إلى طاولته، فجلست قبالته، وأنا أصافحه باليد، وهو ما لم يسبق أن قمت به من قبل .

كان مكتئبًا بعض الشيء، وبدأت عيناه تتكدران. بعد أن جلست، جرع ثلاثة أقداح من الفودكا تباعًا وصار مرحًا بغتة. كان الناس من حولنا

يتحدثون بصوت عال، وكان حاكي المطعم يعزف الأسطوانة تلو الأخرى. عندما صبَّ لنفسه القدح الرابع، بدأ الحاكي يبث أغنية فرنسية حزينة :

«إيل بلو سور لا روت

لو كور آن ديروت »

المطر يهطل على الطريق

والقلب منكسر

كان يستمع بانتباه، مُميلاً رأسه جانبًا. حين وصلت الأسطوانة إلى الكلمات التالية :

«مالجري لو فان، لا بلوي

فريمان سي تو ميم ...»

فلتعصف الريح، وليهطل المطر،

يكفي أن تحبيني ...

دمعت عيناه حتى. آنذاك فقط لاحظت أنه بات ثملاً جدًّا .

قال فجأة بصوت عالٍ، موجهًا كلامه إليَّ :

ـ هذه الأغنية تثير لديَّ بعض الذكريات .

لاحظت أن بجواره على المقعد، حيث كان جالسًا، كتابًا ملفوفًا بورقة، وقد نقله من مكان إلى آخر بضع مرات حريصًا بشدة على ألا يتكرمش .

ـ أعتقد أن لديك ذكريات كثيرة بما يكفي .

ـ لمَ يبدو لك ذلك؟

ـ مظهرك يوحي بذلك، في رأيي .

ابتسم وأكد أن لديه كثيراً من الذكريات بالفعل. كان واقعًا في نوبة صراحة وضرورة الكلام، وهي صفة تميِّز السكارى الجسيمين من نوعه بالتحديد. أخذ يروي لي مغامراته الغرامية، ناهيكم عن أنه كان واضحًا، كما بدا لي، أنه يختلق أو يبالغ في كثير من الحالات. بيد أن ما أدهشني أكثر هو أنه لم يتكلم بالسوء عن أيٍّ من ضحاياه الكثيرات؛ ففي ذكرياته كلها كان هناك شيء أشبه بمزيج من العربدة واللطف. كان هذا تباينًا خفيفًا خاصًّا جدًّا في الشعور يميِّزه بالتحديد، وكان يتمتع بجاذبية لاشعورية ولا شك فيها، وفهمت لماذا في مقدور هذا الإنسان، بالفعل، أن يلاقي النجاح مع كثير من النساء. على الرغم من الانتباه الذي كنت أتابع به حديثه، فإنني لم أستطع أن أتذكر بدقة التعاقب العشوائي والعَرَضي لأسماء النساء التي ذكرها. تنهد وقال مقاطعًا نفسه بنفسه :

ـ لكن في حياتي كلها لم يكن هناك من هي أفضل من «غُجَيريتي»، «مارينا ».

كان عمومًا كثيراً ما يستعمل صيغة التصغير عند حديثه عن النساء: «غُجَيرية»، «فُتيَّة»، «شُقيراء»، «سُويداء»، «سُريعة»، بحيث يتولد انطباع جانبي أنه طوال الوقت إنما يتحدث عن مراهقات ما .

وصف لي مطولاً «مارينا» التي كانت تتمتع، حسب أقواله، بكل الفضائل قطعًا، الأمر الذي كان نادرًا بحد ذاته؛ لكن ما بدا لي الأكثر إثارة للدهشة هو أنها كانت تمتطي الخيل أفضل من أي «جوكي»، وتطلق النار من البندقية من دون أن تخطئ الهدف .

سألته :

ـ لماذا قررت الانفصال عنها إذن؟

قال :

ـ ليس أنا من قرر ذلك يا صديقي العزيز. لقد هجرتني «السميراء»، ولم تذهب بعيدًا، بل عند جاري .

ثم أشار إلى الكتاب الملفوف مضيفًا :

ـ لقد ذهبَت إليه .

ـ إلى مؤلف هذا الكتاب؟

ـ إلى مَن غيره إذن؟

قلت وأنا أمد يدي :

ـ أيمكنني إلقاء نظرة؟

ـ تفضل .

فرَدتُ الورقة، وعلى الفور استرعى نظري تركيب الحروف المألوف: «آيل كام تومورو»، تأليف «ألكسندر ولف ».

كان الأمر مدهشًا بقدر ما كان مفاجئًا. بقيت صامتًا بضع ثوانٍ، مواصلاً النظر إلى العنوان. بعد ذلك سألت :

ـ هل أنت متأكد من أن البائع في المتجر لم يخطئ ولم يعطك شيئًا آخر؟

قال :

ـ أستميحك عذرًا، أي خطأ قد يكون ارتُكب هنا؟ أنا لا أقرأ بالإنجليزية، لكنْ كن متأكدًا من أنني لم أخطئ في هذه المسألة .

ـ أنا أعرف هذا الكتاب، لكن قيل لي منذ مدة قريبة إن مؤلفه إنجليزي .

ابتسم ساخرًا ثانيةً :

ـ «ساشا ولف» إنجليزي! ولِمَ لا يكون ـ اللعنة ـ يابانيًّا حينئذ؟

ـ أتقول: «ساشا ولف»؟

ـ «ساشا ولف»، بل «ألكسندر أندرييفيتش» إن أردت، وهو إنجليزي بقدرنا أنا وأنت .

ـ أتعرفه جيدًا؟

ـ وكيف لا أعرفه !

ـ متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟

قال وهو يصب لنفسه الفودكا :

ـ في العام الماضي. في صحتك. في العام الماضي، في هذا الوقت من السنة تقريبًا. ما إن ذهبنا آنذاك إلى «مونمارتر» حتى بقينا هناك يومين. حتى إنني لا أذكر ما حدث، ولا كيف وصلت منزلي. هذا ما يحدث كل مرة يصادف فيها وجوده في باريس. أنا نفسي، تعلم، لا أمانع في الشرب أو ـ كيف أقول ذلك؟ ـ اللهو، أما هو فيشرب كثيراً. أقول له:

«ساشا، اتَّق الله»، فيجيبني دومًا الجواب ذاته، يقول: «ليست لدينا إلا حياة واحدةَ، وهي شنيعة جدًّا، فما هذا الهراء الذي تقوله؟». ما قولك في ذلك؟ لا بد من موافقته .

كان قد أصبح ثملاً تمامًا، وبدأ لسانه يثقل :

ـ هل هذا يعني أنه لا يعيش في باريس؟

ـ كلا، بل يكون معظم الوقت في إنجلترا، مع أنك قد تلقاه في أي مكان. أقول له: «لماذا بحق الشيطان لا تكتب بالروسية؟ كنا قرأنا ما تكتب». يقول: «لا جدوى من ذلك، بالإنجليزية أربح، يدفعون أفضل ».

ـ وماذا حدث لـ«مارينا»؟

ـ هل لديك وقت؟

ـ قدر ما تشاء .

حينئذ شرع يحكي لي بكل التفاصيل عن «مارينا»، وعن «ألكسندر ولف»، وعن متى حدث هذا كله وكيف. كانت القصة التي رواها مشتتة ومبهرة بما يكفي، وكان يقطعها بين الفينة والأخرى بالشرب، في صحة «ولف» تارة وفي صحة «مارينا» تارة أخرى. تكلم كثيراً ومطولاً، ومع أن القصة كانت تفتقر إلى التعاقب الزمني إلا إنني استطعت أن أكوِّن

تصورًا دقيقًا إلى حد ما حول كل ما جرى .

كان «ألكسندر ولف» أصغر سنًّا من هذا الشخص ـ الذي كان اسمه «فلاديمير بيتروفيتش فوزنيسِنسكي»، وكان من عائلة كهنوتية ـ بخمس أو ست سنوات .

كان من موسكو أو ربما من مكان آخر، لكن من شمال روسيا في كل الأحوال. تعرَّف إليه «فوزنيسنسكي» في فصيلة خيالة الرفيق «أوفيتسيروف»، الثوري اليسَاري الميَّال إلى الأناركية. كانت هذه الفصيلة تخوض حرب عصابات في جنوب روسيا .

سألت :

ـ ضد مَن؟

أجاب «فوزنيسِنسكي» في حزم غير متوقع :

ـ عمومًا ضد كل القوات التي كانت تحاول الاستيلاء على السلطة بطريقة غير شرعية .

بقدر ما فهمت، لم يكن للرفيق «أوفيتسيروف» أي هدف سياسي محدد. كان واحدًا من أولئك المغامرين الشرفاء جدًّا الذين يعرفهم تاريخ كل ثورة وكل حرب أهلية. كان عدد جنود فصيلته يزيد تارة وينقص أخرى، تبعًا للظروف، وزيادة حجم الصعوبات ونقصها،

والفترة من السنة، وجملة من الأسباب الأخرى التي كثيراً ما تكون عَرَضية. لكن مجموعته الأساسية كانت دائمًا هي نفسها، وكان «ألكسندر ولف» الزميل الأقرب إلى «أوفيتسيروف»، ويتميز، حسب كلام «فوزنيسنسكي»، ببعض المزايا، التقليدية في قصص كهذه: «بسالة راسخة»، «عَدم الكلل»، «القدرة على شرب الكثير جدًّا من الخمر»، وكان رفيقًا جيدًا بالطبع. أمضى في فصيلة «أوفيتسيروف» أكثر من عام، وخلال ذلك الوقت توجب عليه العيش في أشد الظروف اختلافًا: في أكواخ الفلاحين وفي بيوت مالكي الأراضي، في البرية وفي الغابة؛ كانوا يجوعون أيامًا أحيانًا، وأحيانًا يأكلون حتى التخمة، وعانوا من البرد في الشتاء ومن الحر في الصيف ـ باختصار، عاشوا كل ما يختبره تقريبًا كل مشارك في حرب مديدة مهما طالت مشاركته أو قصرت. كان «ولف»، بشكل خاص، أنيقًا جدًّا ومولعًا بالنظافة .

قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ لست أفهم حتى الآن متى كان يتسنى له أن يحلق ذقنه كل يوم .

كان يجيد العزف على البيانو، ويمكنه شرب الكحول الخالص، ويحب النساء كثيراً ولا يلعب الورق أبدًا. وكان يعرف اللغة الألمانية، وقد تبين ذلك عندما وجد «فوزنيسِنسكي» وإياه نفسيهما في منزل مستوطنين ألمان، وعزمت العجوز، صاحبة المزرعة، التي لم تكن تتكلم الروسية، على إرسال ابنتها بالعربة إلى أقرب مدينة، على مسافة ثلاثة كيلومترات، لإبلاغ أركان الفرقة السوفيتية أن ثمة فدائيين مسلحين في القرية. لقد

قالت هذا كله لابنتها بالألمانية في حضور «فوزنيسِنسكي» و«ولف ».

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لم يخبرني شيئًا آنذاك، إلا إننا لم نسمح للابنة بالذهاب، بل ربطناها وحملناها إلى العليَّة، ثم أخذنا المؤونة وغادرنا .

حسب أقوال «فوزنيسِنسكي»، قال «ولف» في أثناء خروجهما وهو يهز رأسه :

ـ يا لها من عجوز !

لاحقًا، بعد أن أوضح له «ولف» فحوى الأمر، سأله «فوزنيسِنسكي »:

ـ لِمَ لم تطلق عليها النار إذن؟

قال «ولف »:

ـ فليلعنها الله، لم يتبقَّ من عمرها إلا القليل على كل الأحوال، سيأخذها الله حتى من دون مساعدتنا أنا وأنت .

كان «ولف» محظوظًا جدًّا في الحرب؛ فقد كان يتمكن من الخروج من أشد الأوضاع خطورة سليمًا تمامًا .

سألت :

ـ ألم يُجرح ولا مرة؟

قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ مرة واحدة فقط، لكن الإصابة، في المقابل، كانت بليغة إلى درجة أنني هممت بإعداد الجنازة، وهذه ليست استعارة مجازية، «فاسون دو بارليه» كما يقول الفرنسيون، فقد أعلن الطبيب أن «ساشا» لم يبقَ له في الحياة إلا بضع ساعات .

لكن الطبيب كان مخطئًا؛ وفسَّر «فوزنيسنسكي» ذلك بأنه لم يقدِّر قدرة «ولف» على المقاومة حق قدرها. ثم أردَف «فوزنيسنسكي» أن «ولف» أُصيب في ظروف محيرة تمامًا، ولم يرغب في قولَ شيء عنها زاعمًا أنه لا يذكر كيف حدث ذلك. كانت المعارك آنذاك حامية الوطيس بين فصائل الجيش الأحمر والبيض المتقهقرين؛ وكانت فصيلة «أوفيتسيروف» مختبئة في الغابة ولا تشارك في ذلك أيما مشاركة. بعد ساعة تقريبًا من سماع آخِر إطلاق الرصاص أعلن «ولف» أنه ذاهب للاستطلاع، وذهب بمفرده. مضت ساعة ونصف الساعة، لكنه لم يعد. توجه «فوزنيسنسكي» مع اثنين من الرفاق للبحث عنه. قبل ذلك ببعض الوقت كانوا قَد سمعوا صوت ثلاث طلقات، الثالثة كانت أخفتَ وأبعدَ من الاثنتين الأوليين. سارا كيلومترين أو ثلاثة في طريق مقفرة، حيث كان كل شيء هادئًا ولم يكن ثمة أحد في أي مكان. كان الحر شديدًا.

كان «فوزنيسِنسكي» أول من رأى «ولف»، وكان مستلقيًا بلا حراك في عرض الطريَق و«ينزُّ دمًا وقيحًا» حسب قوله. كان حصانه مفقودًا، الأمر الذي كان مدهشًا بدوره؛ فهو كان يتبعه مثل كلب، ولم يكن ليغادر بإرادته قط .

ـ ألا تذكر نوع الحصان؟ أو لون شعره؟

فكر «فوزنيسِنسكي» ثم قال :

ـ كلا، لا أذكر، فقد حدث هذا منذ زمن بعيد، الله أعلم. كان يبدِّل خيوله كثيراً .

ـ لكن كيف ذلك وقد قلت للتو إنه كان يتبعه مثل كلب؟

قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ لأنه كان يتمتع بهذه الموهبة. كل خيوله هكذا. تعلم أن ثمة أناسًا لا تمسهم الكلاب أبدًا، حتى أكثرها شراسة. أما هو فكانت لديه موهبة كهذه فيما يتعلق بالخيول .

بدت لـ«فوزنيسنسكي»، وكذلك لرفيقيه، الظروف التي جُرح فيها «ولف» جرحًا بلَيغًا غريبة جدًّا. قال الطبيب لاحقًا إن الجرح أحدثته طلقة مسدس، وإن إطلاق النار حدث من مسافة ليست ببعيدة، ولم يكن في مقدور «ولف»، بالطبع، إلا أن يرى من أطلق عليه النار. الأهم

أنه لم تكن هناك أي معركة أو أي أحد في الجوار؛ باستثناء أن على مقربة من المكان الذي عثروا فيه على «ولف» كانت هناك جثة فرس دهماء غير مسرجة. افترض «فوزنيسِنسكي» أن صاحب هذه الفرس قد أطلق النار على «ولف»، فيما يبدو، ثم مضى ممتطيًا حصان الأخير، الذي لا تفسير لاختفائه. أضاف «فوزنيسنسكي» أنه لو لم يتأخر هو ورفيقاه لما أسفوا على الرصاص من أجَل الانتقام لرفيقهم. تذكرت لفحة الريح الحارة التي حملت إليَّ وقع حوافر عدة خيول ـ ذلك الصوت نفسه الذي أرغمني على المغادرة فورًا .

قال «فوزنيسِنسكي» فجأة :

ـ ربما ذاك الرجل، في نهاية المطاف، دافع ببساطة عن حياته ولا يجوز إدانته. أقترح عليك في هذه المناسبة أن نقرع كأسينا في صحته. إنك بحاجة إلى الشرب، فهيئتك توحي لسبب ما أنك مهموم جدًّا .

هززت برأسي في صمت. كان صوت أنثوي خافت يغني في الحاكي في هذه الأثناء :

لا داعي لأي شيء،

لا للإشفاقات المتأخرة ...

كانت الساعة قد بلغت الواحدة ليلاً، وكان الهواء يعبق برائحة الشمبانيا الباردة وبغيمات صغيرة من العطور، وكذلك برائحة إوزة مقلية وتفاح

مشوي. كانت تتناهى من الشارع أصوات أبواق سيارات تصم الآذان، وخارج واجهة المطعم الزجاجية، بدأت ليلة شتوية، مع ضوء المصباح الباهت، البارد، المنعكس على الرصيف الباريسي البليل. في حين أنني رأيت أمامي، بجلاء كئيب لا تفسير له، يومًا صيفيًّا حارًّا يشقُّ الطريق الرمادية الداكنة ببطء كما لو في المنام، ويتلوى بين أحراج صغيرة، وجسد «ولف» الساكن مستلقيًا على الأرض الساخنة بعد هذا السقوط المميت .

أخذه «فوزنيسنسكي» إلى بلدة صغيرة بيضاء وخضراء ـ بيضاء جراء لون البيوت وَخضراء بسبب الشجر ـ أعلى نهر «الدنيبر» وأدخله المستشفى. قال الطبيب لـ«فوزنيسنسكي» إن «ولف» لم تتبقَّ له في الحياة إلا بضع ساعات. إلا إنه بعدَ ثلاثةِ أسابيع خرج من المستشفى بخدَّين متهدلين وبشعر قصير خشن كثٍّ على وجهه جعله لا يشبه نفسه. حضر «فوزنيسنسكي» لأخذه برفقة «مارينا»، التي كان قد التقاها في اليوم التالي لقدومَه إلى هذه المدينة. كانت ترتدي ثوبًا خفيفًا أبيض اللون، والأساور تصلصل في ذراعيها السمراوين. كانت قد هجرت ذويها قبل ذلك بعامين وتتنقل منذ ذلك الوقت في جنوب روسيا، وتتعيش من التبصير تارة ومن الغناء تارة أخرى. كان «فوزنيسنسكي» يصدق بقوة أنها إنما كانت تتعيش على تلك المداخيل الشحَيحة؛ لكن نظرًا إلى وصفه لها فإنني أعتقد أنها بالكاد كانت مضطرة إلى الانشغال بقوت يومها. كانت آنذاك في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر. عندما كان «فوزنيسنسكي» يتحدث عنها كان حتى صوته يتغير، وأعتقد أنه لو لم يكن ثملاً إلى هذه الدرجة لما أخبرني ببعض من مزاياها غير

القابلة مطلقًا للبوح والنادرة حقًّا، والتي لا يمكن أن يعرفها، بالطبع، إلا الذين اختبروا الروعة الحارة التي لا تقاوم لوصالها. عاش مع «مارينا» في دار صغيرة؛ وانتقل «ولف»، الذي كان لا يزال واهنًا جدًّا على استئناف حياته الفدائية السابقة، إلى منزل يبعد عنهما مسافة بيتين. كان ثمة بيانو في منزل «فوزنيسنسكي». حل «ولف» ضيفًا على رفيقه في اليوم التالي مرتديًا بذلة مدَنية، وكان حليقًا ونظيفًا كحاله دائمًا، فتناولوا الغداء معًا، ثم جلس إلى البيانو وراح يرافق بالعزف «مارينا» التي غنت أغنياتها .

بعد بعض الوقت سافر «فوزنيسنسكي» إلى «أوفيتسيروف»؛ وعند عودته لم تكن «مارينا» موجودةَ، فذهب عند «ولف»، ففتحت له هي الباب. كان «ولف» غائبًا ذلك اليوم. نظرت «مارينا» إلى «فوزنيسِنسكي» من دون أي ارتباك وقالت له ببساطة وحشية مباشرة إنها لم تعدَ تحبه بل تحب «ساشا». في تلك اللحظة، حسب قول «فوزنيسِنسكي»، كانت تشبه «كارمن ».

قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ كنت شخصًا صلب العود، وعلى مرأى مني قُتل رفاقي، بل أنا نفسي كثيراً ما خاطرت بحياتي، وخرجت من ذلك كله مثل الشعرة من العجين. لكنني ذلك اليوم عدت إلى البيت واستلقيت في السرير وبكيت، مثل ولد صغير .

ما رواه لي بعد ذلك كان مثيراً للدهشة وساذجًا. فقد أكد لـ«مارينا» أن «ولف» لا يزال ضعيفًا، وأن عليها أن ترثي لحاله وتدعه وشأنه .

أجابته بتلك البساطة نفسها التي كانت تميزها :

ـ عندما يبدأ بالسعال والحشرجة، حينها أتركه .

بيد أن خيانة «مارينا» لم تؤثر قط في العلاقة بين «فوزنيسنسكي» و«ولف». بل إن «فوزنيسِنسكي» وجد لديه القوة لمعاملَة حتى «مارينا» بمودة. لقد عاشت مع «وَلف» شهورًا كثيرة، مرافقة الفصيلة إلى كل مكان، وآنذاك بالذات قدروا فنها في امتطاء الخيل وإطلاق النار من البندقية حق قدره .

بعد ذلك حلت أوقات مخيفة. فقد أُرسلت فرقة خيالة لمطاردة الفصيلة التي بقي منها مائتا رجل، وقد اختبأوا بضعة أسابيع في الغابات. كان ذلك في القرم، وقد قُتل «أوفيتسيروف». في واحد من الأيام الأخيرة لمكوثهم هناك عثروا في الغابة على مسكن محفور في الأرض مجهز جيدًا ولم يكن قد مضى وقت طويل على هجره. كانت تلك المرة الأولى خلال عشرة أيام التي يقضون فيها ليلة هانئة، في دفء نسبي وشيء من وسائل الراحة. ناموا ساعات كثيرة تباعًا، ولما استيقظوا، في الضحى، كانت «مارينا» قد اختفت .

قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ لم نعرف قط ماذا جرى لها وأين اختفت .

لكن لم يكن لديهم لا الوقت ولا الإمكانية للبحث عنها. تمكنوا من بلوغ الشاطئ سيراً على الأقدام، وغادروا روسيا في عنبر باخرة تركية لنقل الفحم. افترق «فوزنيسنسكي» و«ولف» بعد أسبوعين في القسطنطينية، ولم يلتقيا ثانيَةً إلا بعد اثني عشر عامًا في باريس، في عربة مترو، عندما كان «ولف» يسافر، ليس للمرة الأولى قطعًا، إلى فرنسا من إنجلترا، حيث كان يقيم بصورة دائمة .

أما بخصوص مصير «مارينا» فلم يعلم «فوزنيسنسكي» شيئًا. لقد ظهرت فجأة، صبيحة يوم صيفي، في سوق هذَه البلدة الصغيرة الواقعة أعلى نهر «الدنيبر»، واختفت كذلك فجأة، فجر ليلة خريفية، في القرم. قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ ظهرت، وأحرقت، واختفت. إلا إننا لم ننسها، لا «ساشا» ولا أنا .

نظرتُ إليه ورحت أفكر في غرابة اتفاق الأحوال الذي ربط حياتي بكل ما رواه. فقبل خمسة عشر عامًا، هذا الشخص الذي يجلس قبالتي الآن ويستقبل عيد الميلاد بالفودكا والإوز والذكريات، وبأشد الأوضاع مودة تجاه محادثه، خرج مع اثنين من رفاقه بحثًا عن «ألكسندر ولف»، ولولا نسمة الريح الخفيفة لما شعرت باقترابهم، ولربما كانوا لحقوا بي، وحينذاك لم يكن مسدسي لينقذني بالطبع. صحيح، حسب اعتقادي، أن حصان «ولف» الأصيل كان أسرع من خيولهم، لكنه أيضًا كان

يمكن أن يُجرح أو يُقتل مثل فرسي الدهماء. لكن ليس هذا ما كان يشغل أفكاري، بل المصادفة المتعلقة بمصيري الشخصي، ولو سُئلت إن كان الأفضل لو أنني قُتلت آنذاك أم نجوت من أجل الحياة التي تنتظرني، فإنني لست متأكدًا ما إذا كان يجب أن أختار الخيار الثاني. افترقت عن «فوزنيسنسكي» أخيراً، حيث غادر هو بخطوات غير واثقة، وأنا بقيت وحدي، غَارقًا في أفكاري المتعلقة بكل ما عرفته في الآونة الأخيرة وما أثار فيَّ جملة من التصورات المتنافرة والمتناقضة. قد يكون في قصة «فوزنيسنسكي»، بالطبع، شيء من الفانتازيا، التي لا مفر منها تقريبًا في مذكراتَ مبهرجة كهذه، لكنها لم تكن تتعلق بالأهم. ما أخبرني به مدير دار النشر كان يناقض بشدة ما عرفته في أمسية حديث المطعم هذه؛ والحقيقة أنني كنت ميَّالاً إلى تصديق المدير بدرجة أقل بكثير من سميري عشية ليلة الميلاد. لكن لِمَ كان بحاجة إلى أن يؤكد لي أن «ولف» لم يغادر إنجلترا لفترة طويلةَ قط؟ ولماذا أسف لأني لم أقتله؟ لكن هذه أيضًا كانت اعتبارات ثانوية. الأكثر إثارة للدهشة بدا لي أمر آخر: كيف استطاع «ساشا ولف» هذا ـ صديق «فوزنيسنسكي»، المغامر، السكير، عاشق النساء، مغوي «مارينا» ـ أن يكتبَ «آيل كام تومورو»؟ لا يمكن لمؤلف هذا الكتاب أن يكون شخصًا كهذا. كنت أعلم أنه إنسان ذكي من دون شك، ذو تعليم عال، ولا تتمتع ثقافته بأي سمة عَرَضية؛ فضلاً عن أنه لا يمكن ألا يكون غريبًا في العمق عن سكير لطيف ومهمل مثل «فوزنيسنسكي»، وعن كل الذين من هذا الصنف عمومًا. كان يصعب عليَّ تصوُّر شخص واثق بنفسه إلى هذه الدرجة في تلك التقلبات والتباينات النفسية، التي كان موفقًا في استخدامها في بناء نثره، يشد وثاق فتاة مستوطنة ألمانية، على سبيل

المثال. لم يكن في هذا، بالطبع، أي شيء مجاف للحقيقة على الإطلاق، فضلاً عن أنه حدث منذ زمن بعيد. لكنَّ مع ذلك من الواضح جدًّا أن هذا لا يطابق التصور الطبيعي عن مؤلف «آيل كام تومورو». كذلك لا معنى، في رأيي، لكونه إنجليزيًّا أم روسيًّا. ما كنت أود أن أعرفه أكثر من أي شيء آخر ـ إن كانت قصة «فوزنيسنسكي» صادقة عمومًا، وهو أمر لم أشك فيه تقريبًا ـ هو كيف تحولَ «ساشا ولف»، المغامر والفدائي، إلى «ألكسندر ولف»، مؤلف هذا الكتاب. كان يصعب عليَّ تصور ذلك: هذا الفارس على حصان فحل أبيض، الرامح بسرعة للقاء موته، وبالتحديد تلك الميتة، بطلقة مسدس بينما يعدو بجواده خَبَبًا، ومؤلف المجموعة القصَصية التي تُستهل باقتباس من «إدجار آلان بو». قلت في نفسي: لكنني سأعرف ذلك عاجلاً أو آجلاً، وربما أتمكن من اقتفاء تاريخ هذه الحياة من أولها إلى آخرها، في منحاها المزدوج ذاك، الذي أثار اهتمامي بصورة خاصة. قد يحدث ذلك وقد لا يحدث؛ في كل الأحوال، لم يكن ينبغي التحدث عن ذلك إلا بصيغة المستقبل، ولم أتصور قط الظروف التي سأعرف فيها ذلك، إن كان مقدَّرًا لي عمومًا أن أعرف. انجذبت لاإراديًّا إلى هذا الشخص، وإلى جانب الأسباب التي بدت لي الأكثر جلاء وكفاية لتفسير اهتمامي به، كان هناك سبب آخر أيضًا، ليس أقل أهمية، ومرتبط بمصيري الشخصي هذه المرة. بيد أنني حين فكرت فيه للمرة الأولى بدا لي سببًا سخيفًا تقريبًا، فقد كان شيئًا من قبيل التعطش إلى تبرير الذات أو البحث عن تعاطف، وأنا نفسي بدأت أُشبه محكومًا بعقوبة معينة ويبحث بالطبع عن مجتمع الناس المحكومين بالعقوبة التي حُكم عليه بها. بكلمات أخرى، أثار «ألكسندر ولف» اهتمامي أيضًا لأنني أنا

نفسي عانيت طوال حياتي من الازدواج العنيد جدًّا الذي لا خلاص منه، والذي حاولت مكافحته بلا جدوى وسمَّم أفضل أوقات حياتي. لعل ازدواجية «ألكسندر ولف» المفترضة كانت، ببساطة، متخيلة، وكل ما بدا لي متناقضًا في تصوري عنه لم يكن سوى عناصر مختلفة لذلك التناغم النفسي الذي كان يتميز به مؤلف «آيل كام تومورو». لكن إن كان الأمر كذلك فقد كان بودي أن أفهم بشكل خاص كيف تمكن من بلوغ نتيجة سعيدة إلى هذا الحد، ومن النجاح فيما أخفقت فيه باستمرار وبصورة حتمية منذ زمنٍ بعيد .

إنني أذكر جيدًا جدًّا تاريخ هذه الإخفاقات، حتى منذ تلك الأزمنة التي كانت فيها مسألة ازدواجي الشخصي تحمل سمة بريئة تمامًا ولم تكن تُنذر قط، فيما بدا، بتلك العواقب الكارثية التي أعقبتها لاحقًا. لقد بدأ ذلك منذ أن اجتذبني شيئان نقيضان بالدرجة نفسها: من جهة تاريخ الفن والثقافة، والقراءة التي خصصت لها الكثير جدًّا من الوقت، والنزوع إلى المسائل التجريدية؛ ومن جهة أخرى المحبة المفرطة بالدرجة نفسها تجاه الرياضة وكل ما يتعلق بالحياة البدنية العضلية الحيوانية المحضة. كدت أمزق قلبي بالأثقال، التي كانت ثقيلة بالنسبة إليَّ، وأمضيت نصف حياتي تقريبًا في الميادين الرياضية، وشاركت في كثير من المسابقات، وحتى الآونة الأخيرة كنت أُفضل مباراة كرة القدم على أي عرض مسرحي. لديَّ الكثير من الذكريات المزعجة عن العراكات العنيفة التي ميزت فتوتي ولم تكن تشبه الرياضة قط. حدث هذا منذ زمن بعيد بالطبع؛ بقيت لديَّ ندبتان في رأسي ـ أذكر، كأنما في المنام، أن رفاقي حملوني آنذاك إلى البيت، مغطى بالدماء وفي بذلة

رياضية ممزقة. لكن هذا كله، وكوني عشت دائمًا في مجتمع اللصوص وعمومًا وسط أناس يعيشون في حرية مؤقتة بين سجن وآخر، لم يكن له معنى مميز كما يبدو، مع أنه كان في الإمكان، آنذاك، افتراض أن الحب الراسخ المتماثل تجاه تلك الأمور المتباينة، كأشعار «بودلير» والعراك الضاري مع بعض «الزعران»، يتضمن أمرًا غريبًا ما. فيما بعد اتخذ هذا كله أشكالًا أخرى، لكن بعيدة عن أي تحسن، لأنه كلما استمر وقتًا أطول زاد التباعد أكثر وزادت حدة التناقض الذي هو سمة حياتي. كان التناقض يكمن بين ما كنت أشعر بميل وانجذاب روحي نحوه وما كنت أصارعه دونما جدوى، وبالتحديد هذه البداية العاصفة والشهوانية لحياتي .

هذا الازدواج كان يعرقل كل شيء، ويعتِّم على الإمكانات التأملية التي كنت أقدرها أكثر من أي شيء آخر، ولم يكن يسمح لي برؤية الأشياء كما ينبغي أن أراها، بل يشوهها في انعكاسه الفظ الذي لا يُقهر، وأرغمني على القيام بكثير من الأفعال التي ندمت عليها حتمًا فيما بعد. دفعني إلى حب أشياء كنت أعلم جيدًا جدًّا مدى تفاهتها الجمالية، وكانت أشياء رديئة الذوق بوضوح، وقوة انجذابي إليها كان في الإمكان مقارنتها فقط بالاشمئزاز الذي كنت أشعر به تجاهها في الوقت نفسه بشكل لا تفسير له .

لكن النتيجة الأحزن لهذا الازدواج كانت تجربتي العاطفية مع النساء. لقد أمسكت بنفسي متلبسًا منذ زمن بعيد وأنا أقتفي، بعينين نهمتين وغريبتين تقريبًا، وجهًا نسائيًّا فظًّا وثقيلًا، ما كان أكثر المراقبين فطنة

وإنصافًا ليجد فيه أي إلهام. لم يكن في مقدوري عدم رؤية أن انعدام الذوق في ملابس هذه المرأة راسخ وصارخ، كما لم يكن في إمكاني افتراض أن فيها شيئًا غير المنعكسات البهيمية ـ ومع ذلك كانت حركة جسدها ومشيتها المتهادية تثيران لديَّ انطباعًا قويًّا لا يُدرك. الحقيقة أنني لم أكن أملك أي شيء مشترك مع النساء اللواتي من هذا النوع، بل على العكس، عند اقترابي منهن كان يبدو أن الشعور الأقوى لديَّ هو الاشمئزاز. النساء الأخريات، اللواتي عبرنَ حياتي، كنَّ ينتمين إلى وسط مختلف تمامًا، ويشكلن جزءًا من العالم الذي كان يجب أن أعيش فيه دائمًا والذي كنت أُجذب منه إلى أسفل بقوة لا تُقهر. أعتقد أنني كنت أشعر نحوهن بأفضل المشاعر التي كنت مؤهلًا لها، لكن كان في ذلك كله مذاق فتنة خاملة يترك فيَّ كل مرة شعورًا غامضًا بعدم الارتياح. هكذا كانت الحال دومًا، ولم أعرف شعورًا آخر قط. وأعتقد أن ما كان يمنعني من خطو هذه الخطوة الأخيرة كان شيئًا أشبه بغريزة البقاء، وإدراكًا لاواعيًا بأن هذا لو حدث فسينتهي بكارثة روحية. لكنني كثيراً ما شعرت أنها قريبة، وفكَّرت في أن قدري، الذي أنقذني بسلام من أوضاع صعبة جدًّا، وخطيرة أحيانًا، هو الذي رعاني، مانحًا إياي ـ خلال سويعات قليلة في حياتي كلها ـ وهمَ السعادة الوديعة والمجردة تقريبًا، التي لم يكن فيها مكان لتَوْقي الذي لا يُقهر إلى الأسفل. كان هذا أشبه بحال إنسان تجذبه الهاوية دائمًا، لكنه يعيش في بلد لا جبال فيه ولا وديان، وإنما مساحات مستوية وسهول مسطحة وحسب .

نظرًا إلى كيفية مرور الوقت ومعه حركة حياتي البطيئة، تعودتُ على ازدواجية كينونتي، لنقُل كما يتعود الناس على الآلام نفسها التي

تصاحب مرضًا لا براء منه. لكنني لم أكن قادرًا على التصالح حتى النهاية مع معرفة أن إدراكي البدائي والحسي للعالم قد يحرمني من إمكانات نفسية كثيرة جدًّا، وأن ثمة أمورًا أفهمها نظريًّا لكنها تبقى دائمًا عصيَّة على الإدراك بالنسبة إليَّ، كما سيبقى غيرَ قابل للإدراك بالنسبة إليَّ عالمُ المشاعر السامية التي، مع ذلك، عرفتها وأحببتها طوال حياتي. هذه المعرفة كانت تتجلى في كل ما أفعله أو أباشره؛ فقد كنت أعرف كل مرة أن ذلك الجهد الداخلي، الذي كان يجب أن أكون قادرًا عليه من حيث المبدأ وكان يحق للآخرين توقعه مني، كان ليبدو لي فوق طاقتي، ولهذا لم أكن أهتم لكثير من الأمور العملية، ولهذا أيضًا اتَّسمت حياتي عمومًا بتلك السمة العفوية والفوضوية. وهذا أيضًا حدَّد مسبقًا خياري المهني، وبدلًا من تكريس وقتي للعمل الأدبي، الذي كنت أشعر بالميل إليه لكنه كان يتطلب هدرًا كبيراً للوقت وعملاً دؤوبًا ونزيهًا، مارست العمل الصحفي، العشوائي جدًّا والذي يتميز بتنوع مضن. بحكم الضرورة كان عليَّ الكتابة عن كل ما يخطر في البال، بدءًا من المقالات السياسية ووصولًا إلى المقالات النقدية حول الأفلام والتقارير المتعلقة بالمسابقات الرياضية. لم يكن هذا يتطلب جهدًا كبيراً ولا معارف متخصصة؛ هذا بالإضافة إلى أنني كنت أستخدم إما اسمًا مستعارًا وإما الحرفين الأولين من اسمي، متجنبًا على هذا النحو المسؤولية عما أكتب. هذا، بالمناسبة، علمتني إياه التجربة: تقريبًا لا أحد أبدًا، من الذين اضطررت إلى الإعراب عن رأي غير إيجابي تمامًا في حقهم، إلا وردَّ على انتقاداتي، وكلٌّ منهم كان يشعر بضرورة ماسة إلى أن يبين لي خطئي شخصيًّا. أحيانًا كان يتوجب عليَّ الكتابة عما لا يدخل ضمن اختصاصي، وكان هذا يحدث عندما كنت أنوب عن

اختصاصيٍّ مريض أو مسافر. إحدى المرات، مثلاً، لم يكن يأتيني إلا مقالات النعي، حيث كتبت ستًّا منها في أسبوعين، وذلك لأن رفيقي، الذي كان يقوم بذلك عادة (بحميَّة غير عادية ونزاهة مهنية نادرة)، وكانت كنيته «بوسويه»، كان يرقد في الفراش جراء التهاب الرئتين. عندما ذهبت لزيارته قال لي بابتسامة ساخرة :

ـ أرجو ألا تضطر، يا زميلي العزيز، إلى تجشُّم عناء كتابة مقالة نعي عني. من جهتك سيكون ذلك التصرف الأكثر تضحية الذي يحق لنا أن نرجوه .

قلت :

ـ «بوسويه» العزيز، أعدك وعدًا قاطعًا أنني لن أكتب نعيك. أعتقد أنه ما من أحد يمكنه القيام بذلك أفضل منك .

الأكثر إثارة للدهشة هو أن «بوسويه» حضَّر لنفسه فعلاً مقالة نعي، وقد أراني إياها، ووجدت فيها كل ما اعتاده كلُّ مبدعي هذا الجنس الأدبي الإيجابيين والتقليديين: عمل نزيه وموت أثناء الخدمة ـ «مور أو كومبا»، «سقط في المعركة، مثل جندي» ـ وماض لا تشوبه شائبة، وحزن العائلة ـ «ماذا سيحدث لأبنائه؟» ـ وهلمَّ جرًّا .

كانت فترة النعايا فترة مشهودة بالنسبة إليَّ، خصوصًا لأن المقالة الأخيرة ـ السادسة بالعدد ـ أعادتها إليَّ هيئة التحرير مع طلب إبراز المزيد من الجوانب الإيجابية للمتوفى. ومما زاد الأمر صعوبة أن الحديث كان

يتعلق بشخصية سياسية ماتت جراء شلل متطور؛ فقد تميزت حياته كلها بتتابع دائم بصورة مدهشة للأعمال السوداء: أرصدة عمليات مصرفية مزيفة، خيانات حزبية كثيرة، فضلاً عن المآدب، وارتياد الملاهي الليلية الأكثر شهرة وبيوت الدعارة الأغلى تكلفة، وأخيراً الموت نتيجة إصابته بمرض زُهري. كانت المقالة عاجلة، وجلست أعمل عليها أمسية كاملة، بحيث لم يتسنَّ لي تناول الغداء، وفقط بعد إنهاء كتابة السطور الأخيرة وأخذها إلى المطبعة ذهبت إلى المطعم الروسي حيث كنت قد قضيت لَيلة عيد الميلاد، وبعد انقطاع طويل التقيت هناك من جديد «فوزنيسنسكي»، الذي كان يجلس وحيدًا وفرح بلقائي بصدق، كأنني صديق قَديم. خاطبني بأريحية ومن غير تكلُّف كأن أحدنا يعرف الآخر منذ زمن طويل؛ لكنْ، كالعادة، لم يكن هناك أي شيء مزعج في كل ما يقول أو يفعل. سألني أين أختفي وما إن كان ينبغي كل مرة انتظار عيد الميلاد لكي يلتقيني، ثم راح يسأل عما أعمل بشكل عام. عندما أخبرته أنني صحفي تحمس بصورة غير عادية وقال :

ـ يا لسعادتك! أما أنا فلم يهبني الله .

ـ وأين السعادة في ذلك؟

ـ أرجو عفوك، لو كنتُ صحفيًّا لكتبت ما يذهل الجميع .

ـ أعتقد أن المرء لا يحتاج أن يكون صحفيًّا لكي يكتب. لعلك تجرب .

أجاب :

ـ جربت، لكن لم يَنتج شيء .

وروى لي كيف أنه ذات يوم جلس يكتب مذكراته، حيث أمضى نصف ليلة وهو يكتب، وهو نفسه كان مبتهجًا لشدة روعة كل ما كتب .

ـ إنك تعلم جيدًا أن تلك المقارنات الرائعة وتلك الصياغة الفنية مذهلة ببساطة .

قلت :

ـ هذا جيد جدًّا، لكن لماذا لم تواصل؟

قال :

ـ أخلدت إلى النوم في الفجر تقريبًا. أنا نفسي كنت مبهورًا بموهبتي التي انكشفت فجأة .

ثم تنهد وأضاف :

ـ لكني حين أفقت وأعدت قراءة ذلك كله شعرت بالانزعاج ببساطة. فقد بدت كلها ترهات ومكتوبة بطريقة حمقاء بحيث إنني نفضت يدي من الأمر. لن أكتب مرة أخرى أبدًا .

كان جالسًا وينظر أمامه منشغل البال وعلى وجهه تعبير أسى حقيقي.

ثم سألني كأنما تذكَّر شيئًا :

ـ هاك ما أردت التحدث إليك في شأنه. أخبرني من فضلك، كيف هي كتابة «ساشا»، جيدة أم لا بأس بها؟ هل تذكَر، «ساشا ولف»، الذي تحدثنا أنا وإياك عنه؟

أخبرته برأيي في هذا الصدد. هز برأسه .

ـ وهل كتب عن «مارينا» في هذا الكتاب؟

ـ لا .

ـ للأسف، كان يجدر الكتابة عنها. وعمَّ يكتب؟ اعذرني إن استفهمت منك على هذا النحو، فأنا لا أعرف الإنجليزية، وكتاب «ساشا» يقبع لديَّ كمخطوطة مكتوبة بلغة غريبة .

أخبرته بفحوى الكتاب بصورة تقريبية. أثارت اهتمامه بشكل خاص، بالطبع، قصة «مغامرة في السهب»، إلا إنه، مع ذلك، لم يستطع تقبل فكرة أن «ساشا ولف»، «ساشا» هذا نفسه، الذي يعرفه جيدًا ـ «مثلنا جميعًا»، كما قال ـ أن يتبين أن «ساشا» هذا كاتب، وإنجليزي فوق ذلك .

قال :

ـ من أين له هذا؟ لست أفهم. هاك ماذا يعني النبوغ. أما أنا، فقد أهدرت حياتي كلها في التفاهات، أما «ساشا» فستُكتب عنه فيما بعد مقالات، وربما كُتُب. وقد يتم تذكرنا في حال كُتب عنا، وبعد خمسين سنة قد يقرأ عنا طلاب ثانوية ما، وهكذا كل ما حدث لن يذهب سدى .

ومرة أخرى راح ينظر أمامه بنظرة شاردة. ثم تابع قائلاً وهو يفكر بصوت مسموع :

ـ وهكذا سيخلد كل شيء، وكيف كانت الأساور تصلصل في يدي «مارينا»، وكيف كان نهر «الدنيبر» ذاك الصيف، وكم كانت الحرارة شديدة، وكيف كان «ساشا» مستلقيًا في عرض الطريق. لقد رأى، إذن، من أطلق عليه النار آنذاك؟ حسب وصفه، تقول إنه كان ولدًا؟ كيف يروي ذلك في كتابه؟

أعدت له هذا الموضع من القصة بمزيد من التفصيل .

قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ نعم، نعم، هذا محتمل أكثر. ربما شعر الولد بالفزع. ألا تتصور ذلك؟ قُتلت الفرس التي يركبها، يقف المسكين وحيدًا في البرية، وثمة قاطع طريق يخب نحوه سريعًا ومعه بندقية .

ثم استغرق في التفكير ثانيةً .

ـ إذن لن نعرف عنه شيئًا أبدًا. هل كان طالب مدرسة ثانوية، كان حتى وقت قريب يخشى المدرسين أكثر من الرصاص ويقرأ كتب أمه في البيت، أم كان شقيًّا أشبه بمتشرد؟ وهل أطلق النار من الهلع أم بحسبة هادئة مثل القتلة؟

ثم أردف فجأةً :

ـ على أي حال، إن التقيته بأعجوبة ما لقلت له: «شكرًا، يا صديقي الحميم، لكونك أخطأت التسديد قليلاً؛ فبفضل خطئك هذا سنواصل جميعًا حياتنا، «مارينا» و«ساشا» وربما حتى أنا ».

ـ وهل تعطي ذلك هذا المعنى؟

ـ وكيف إذن؟ تمضي الحياة بلا أثر، ملايين الناس يختفون من دون أن يذكرهم أحد، ومن هؤلاء الملايين لا يبقى إلا بضعة أفراد فقط. هل هناك ما هو أروع من ذلك؟ أو خذ، على سبيل المثال، حسناء مثل «مارينا»، التي ربما عشرات الناس مستعدون للموت في سبيلها، وبعد بضع سنوات لا يبقى منها شيء إلا جثتها المتعفنة في مكان ما! فهل هذا عدل؟

ـ لا يسع المرء إلا أن يأسف حقًّا لكونك لست كاتبًا .

ـ آه، بالطبع يا عزيزي. وهل اعتقدت أنني تحسرت على ذلك عبثًا؟ إنني إنسان بسيط، لكن ما العمل إن كان لديَّ توق إلى الخلود؟ لقد

عشت حياة لاهية جدًّا، مع كل الفتيات وفي كل المطاعم، لكن هذا لا يعني أنني لم أُنعم التفكير يومًا في أي شيء. على العكس، فبعد الفتيات والمطاعم، في الصمت والوحدة، آنذاك بالتحديد تتذكر كل شيء، ويخيم الحزن بصورة خاصة على النفس. هذا الأمر سيؤكده لك كل الفجَّار والسكيرين .

هذه المرة كان في مزاج واعٍ وصاحيًا تقريبًا. في النهاية أخذ يكلمني بالنبرة التي يكلم بها الكبارُ الأصغر سنًّا: «وهكذا عندما تعيش مثلي...»، «إنك شاب جدًّا بالطبع...»، ثم دار الحديث مرة أخرى عن «ولف»، لكنه لم يقل شيئًا جديدًا .

مضت بضعة أسابيع أخرى، وطوال هذا الوقت لم يُضف أي دليل إلى أدلتي، حتى في مجال افتراضاتي. لم أتلقَّ من لندن أي رسالة، وخطر لي أكثر من مرة أن هذا كله سيبقى على حاله إلى الأبد: قد يموت «ولف»، وقد لا ألتقيه أبدًا ويبقى كل ما أعرفه عنه منحصرًا بقصته «مغامرة في السهب»، وبذكرياتي الخاصة عن أيام الصيف الحارة تلك، وبما قاله لي «فوزنيسنسكي». سأتذكر بضع مرات أيضًا الطريق، والمدينة البيضاء والخَضراء على «الدنيبر»، وأصوات البيانو في الدار الصغيرة وصلصلة الأساور في يدي «مارينا» ـ التي لم يستطع «فوزنيسنسكي» نسيانها ـ ثم سيبهت هذا كله شيئًا فشيئًا ويخبو، وبعد ذلك لنَ يبقى شيء تقريبًا، ربما ما عدا الكتاب المكتوب بهذه اللغة السلسة والرهيفة، والعنوان الذي أيضًا سيرن بالنسبة إليَّ بتهكم ناءٍ ما .

كنت أرتاد كسابق عهدي هذا المطعم من حين إلى آخر، لكنني كنت أجد نفسي دائمًا هناك ليس في الأوقات التي يأتي فيها «فوزنيسنسكي»، الذي كان قد فقدَ، على أي حال، قدرًا كبيراً من اهتمامي. كانَ الحاكي، الموصول إلى جهاز المذياع، يعزف أسطواناته كما في السابق، وكل مرة يبدأ فيها صوت أنثوي خافت بأغنية :

لا داعي لأي شيء،

لا للإشفاقات المتأخرة ...

أرفع رأسي لاشعوريًّا، ويبدأ يلوح لي أن الباب سيُفتح فجأة ويدخل «فوزنيسنسكي»، ويدخل في إثره شخص أشقر الشعر بخطى عجولة وبنظرة ثَاقبة من عينين رماديتين. كون أن عينيه كانتا رماديتين، تذكرت ذلك بدقة الآن، مع أنهما تلك المرة، عندما رأيتهما، كان يغطيهما تمامًا تقريبًا غبش ما قبل الموت، ولم ألحظ لونهما إلا لأن هذا حدث في ظروف استثنائية جدًّا .

*

واصلت نمط الحياة نفسه، لم يتغير فيه شيء، كانَ كل شيء مشوشًا وكئيبًا كما كان دائمًا، وأحيانًا لم أكن أستطيع أن أُبعد عني الشعور بأنني أعيش على هذا النحو منذ الأزل البعيد وأعرف منذ زمن بعيد إلى حد الضجر المميت ما سأراه: هذه المدينة، هذه المقاهي ودور السينما، هيئات تحرير الصحف هذه؛ الأحاديث نفسها حول المواضيع نفسها

وتقريبًا مع الأشخاص أنفسهم. ذات يوم، في شهر يناير في شتاء لطيف ماطر، ومن دون أي استعداد لذلك، من دون توقع أي جديد، بدأت الأحداث التي أخذتني لاحقًا بعيدًا جدًّا. في الحقيقة، لم يكن في الإمكان، على أي حال من الأحوال، اعتبار أنها بدأت بمحض الصدفة، من جهتي على الأقل. تمامًا كما أنني قبل بعض الوقت عملت في كتابة النعايا مكان «بوسويه»، الذي شُفي الآن، لحسن الحظ، وباشر ثانيةً بحمية غير مفهومة كتابة مقالاته الجنائزية العاطفية، كذلك كان عليَّ بعد ذلك الحلول محل موظف آخر في الجريدة، متخصص في التقارير حول المسابقات الرياضية، سافر إلى «برشلونة» لحضور مباراة دولية مهمة جدًّا ـ من وجهة نظره ـ لكرة القدم. بعد ذلك بيوم كان يجب أن يحدث في باريس حدث ليس أقل أهمية، وبالتحديد نهائي بطولة العالم في الوزن نصف الثقيل للملاكمة، وقد كُلفت أنا بكتابة تقرير عن ذلك. كانت تعنيني كثيراً نتيجة المباراة، فقد كان لديَّ تصور محدد تمامًا عن مسيرة كلٍّ من الخصمين ومزاياه، والمواجهة بينهما كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة إليَّ. أحد الملاكمين كان الملاكم الفرنسي الشهير «إميل دوبوا»، والثاني كان الأمريكي «فرد جونسون» الذي كان يلعب للمرة الأولى في أوروبا. كان الملاكم المَفضل للجميع هو «دوبوا»؛ وكنت من القلائل الذين يعتقدون أن «جونسون» مَن سيفوز بالمباراة، لأنني جمعت الأدلة التي لم تكن معروفة لمعظم الجمهور بل حتى لمعظم الصحفيين، وبالتالي كانت لديَّ بعض الأسباب للاعتقاد بذلك. كنت أعرف «دوبوا» منذ زمن بعيد؛ وفي السنوات الأخيرة لم يُمنَ بأي هزيمة. على الرغم من ذلك، لم يكن جائزًا مطلقًا اعتباره ملاكمًا استثنائيًّا. كان يتمتع بلا شك بمواهب طبيعية، لكن هذا كان

على الأرجح بسبب غياب بعض العيوب وليس بفضل جملة من المزايا: كان يتميز بقدرة غير عادية على المقاومة وعلى تحمل عدد كبير من اللكمات القاسية، وكانت لديه رئتان رائعتان وقلب رائع وتنفُّس لا ينضب. في هذا كانت تكمن مزاياه الإيجابية، بيد أنها غير كافية لكي يقول المرء إنه يتمتع بتفرد احترافي شديد. فالتكتيك الذي كان يستخدمه، وهو نفسه دائمًا، كان دليلاً على افتقاره التام إلى أي إلهام أو مخيلة؛ بدا ناجحًا بضع مرات فلم يغيره بعد ذلك قط. كانت يداه قصيرتين، ولم يكن يتمتع بالسرعة والمرونة الكافيتين. كان يفوز في المباريات بفضل «الكور-آ-كور»، القتال عن قرب، المتكرر، وكانت لكماته تصيب دائمًا أضلاع خصمه، وطوال مسيرته لم يفز بالضربة القاضية سوى مرتين، وكلتاهما كانتا بالمصادفة. لقد سُحقت أذناه وهُشم أنفه بلكمات مباشرة منذ زمن بعيد؛ فقد كان يهاجم خصمه عادة، كالثور، منكِّسًا رأسه القاسي ومنهالاً على الخصم باللكمات برجولة واثقة وغبية. كان بطل أوروبا في الوزن نصف الثقيل، وهذه المرة تنبأت له وسائل الإعلام كلها بنصر سريع. في حياته الخاصة كان شخصًا غبيًّا وطيب القلب جدًّا، كما أنه لم يطلب يومًا من الصحفيين ألا يكتبوا عنه، وفوق ذلك كله كان عمومًا يقرأ بصعوبة وقلما اهتم بالصحف .

لم أكن أعرف عن «فرد جونسون» إلا ما كتب عنه الصحفيون الأمريكيون، وكان لا بَد من القيام بعمل كبير لاستخراج أي قدر من المعلومات المفيدة لإبداء الرأي بخصوصه من كل هذا الكم الكبير من المقالات الدعائية. لم يستطع «جونسون» إنهاء دراسته في الجامعة

لعدم كفاية المال لديه، وهذا بالذات ما جعله يختار مهنة الملاكمة. هذا بحد ذاته كان أمرًا غير عادي بما يكفي. ميزته الثانية، وهي مهنية خالصة، كمنت في أنه أوصل مبارياته كلها تقريبًا إلى الجولة الأخيرة. الثالثة، والتي أسف لها حتمًا كلُّ من كتب عنه، هي أن لكمته كانت تفتقر إلى القوة اللازمة، وعدد الضربات القاضية في مسيرته كان لا يُذكَر، مع أنها كانت تحدث من حين إلى آخر، وكل مرة كان هذا يثير دهشة الجميع، لكن لندرة حدوث ذلك كان سرعان ما يُنسى. كل الذين كتبوا عنه أشاروا، بلا استثناء، إلى سرعة حركته غير العادية وتنوُّع تكتيكاته. لقد رأيت صوره كثيراً: وجه «جونسون»، بعكس وجوه معظم الملاكمين المحترفين، لم يكن مشوهًا. بعد قراءة بضع عشرات من المقالات عنه ومتابعة نتائج مبارياته توصلت إلى بضعة استنتاجات نظرية محضة، وكنت مهتمًّا بصورة خاصة الآن بالتأكد من صحتها. هذه الاستنتاجات كانت التالية: أولًا، «جونسون» ـ على الأقل في مبارياته ـ كان ذكيًّا، الأمر الذي منحه فوراً أفضلية هائلة على خصومه؛ كنت أحب الملاكمة كثيراً، لكنني اقتنعت منذ زمن بعيد بأن أي وهم فيما يتعلق بسرعة الإدراك لدى الملاكمين وبوجود الحد الأدنى منً مرونة المخيلة لديهم، ولو بالمعنى التقني، غالبًا ـ في تسعين بالمائة من الحالات ـ مجرد عبث. ثانيًا، كان «جونسون»، فيما يبدو، يتمتع بالقدرة على التحمل، ليس أقل من «دوبوا»، إذ لا يمكن إلا لملاكم يتمتع بقدرات بدنية استثنائية أن يسمح لنفسه بترف تحمل عشر جولات أو خمس عشرة جولة كل مرة. ثالثًا، كان يتقن تقنية الدفاع بصورة رائعة ـ والدليل أن وجهه لم يعانِ إصابة جدية طوال مسيرته. ثم أخيراً والأهم، كان يمتلك ـ هكذا بدا لِيَ ـ عند الضرورة القصوى لكمة قوية بما يكفي

من أجل الضربة القاضية، لكنه لم يلجأ إلى ذلك إلا في حالات نادرة جدًّا، مفضلاً الفوز في المباريات بالنقاط. فضلاً عن أنه كان أصغر من «دوبوا» بست سنوات؛ هذا أيضًا كان له بعض الأهمية .

كنت واثقًا تمامًا من صحة افتراضاتي، لكنها مع ذلك كانت قائمة على أسس غير مباشرة، فضلاً عن التقارير الرياضية غير الموثوقة للصحف الأمريكية. كانت مهمة «جونسون» في هذه المباراة تنحصر في أمر واحد: كان عليه إبقاء «دوبوا» على مسافة وعدم السماح بـ «الكور-آ-كور ». كنت متأكدًا من أن «جونسون» لا يعقل ألا يدرك ذلك، وأن تفوُّق تقنيته في هذه الحال ستضمن له النصر .

لم أرَ جموعًا كهذه وحشدًا كهذا من السيارات منذ زمن بعيد، كما الحال مساء هذه المباراة، أمام مدخل «الباليه دي سبور»، قصر الرياضة الضخم. كانت التذاكر كلها قد بيعت منذ وقت طويل. كانت سيارة السفير الأمريكي هائلة الحجم تقف أمام المدخل مباشرة. في الشارع، تحت مطر الشتاء الخفيف، احتشد عدد كبير من الناس؛ وكان تجار التذاكر القلائل مختبئين من الشرطة في الزوايا المعتمة. ما كدت أخطو بضع خطوات حتى ناداني أحد معارفي، وهو مهندس معماري شاب عرفته في الحي اللاتيني في أيام الدراسة .

قال بصوت عالٍ وهو يصافحني بقوة :

ـ يا لك من محظوظ! لستَ بحاجة إلى البحث عن الأوغاد الذين

يبيعون التذكرة التي بعشرين فرنكًا بمائة وخمسين فرنكًا. تبًّا! أنا أيضًا كنت أود لو أن لديَّ بطاقة صحفي مثلك. هل تراهن ضد «دوبوا»؟ سأراهن بعشرة فرنكات .

ثم صاح إذ رأى رجلاً قصير القامة يعتمر قبعة :

ـ آه، ها هو! ها هي تذكرتي، إلى اللقاء !

واختفى .

وفي هذه اللحظة قال لي صوت نسائي، هادئ جدًّا، بنبرة ثابتة لا تغيرُّ فيها، وبلكنة أجنبية واضحة :

ـ اعذرني من فضلك، هل أنت صحفي حقًّا؟

استدرت. كانت امرأة في قرابة الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من العمر، حسنة الثياب، ذات وجه ثابت الملامح وجميل جدًّا وعينين رماديتين غير كبيرتين؛ لم تكن قبعتها تغطي جبينها بشكل صحيح ودقيق تمامًا. أدهشني أنها خاطبت شخصًا لا تعرفه، فقد بدا لي أن هذا ليس من سجاياها، لكنها تكلمت بمنتهى البساطة والحرية بحيث أجبتُ فورًا أنْ أجَل، أنا صحفي فعلاً ويسعدني أن أكون مفيدًا لها بطريقة ما .

قالت :

ـ لم أتمكن من الحصول على تذكرة من أجل المباراة، وأرغب بشدة في مشاهدتها. ألا يمكنك إدخالي؟

أجبت :

ـ سأحاول .

وعمومًا، بعد أحاديث طويلة مع الإدارة، وإعطاء فاحص التذاكر «ثمن كأس من الشاي»، دخلت وإياها الصالة، وتنازلت لها عن مقعدي، الذي قبلته من دون أي ارتباك؛ وأنا بقيت واقفًا بجانبها، مباشرة قرب الحاجزَ الحجري الذي يفصل مكانينا عن الآخرين. بعد ذلك لم تنظر إليَّ ولو مرة واحدة واكتفت بسؤالي قبل بدء المباراة من دون أن تدير رأسها نحوي تقريبًا :

ـ من سيفوز في رأيك؟

قلت :

ـ «جونسون ».

لكن في هذه الأثناء كان الملاكمان قد ظهرا على الحلبة، وتوقف الكلام. المعركتان اللتان سبقتا البطولة لم تثيرا أي اهتمام. أخيراً حانت اللحظة التي كان يجب أن تبدأ فيها المباراة. رأيت قامة «دوبوا» المربوعة العريضة في بُرنس موبَّر وردي داكن؛ توجه نحو الحلبة يرافقه

مديره وشخصان آخران يحملان في أيديهما مناشف بصورة استعراضية. كانت ترتسم على وجهه الهادئ البليد ابتسامته اللامبالية المألوفة. أخذ الحشد يصفق ويهدر عاليًا، وفي الأعلى سُمعت صرخات تشجيع :

ـ «فازي ميميل»! أعطِه يا «ميميل»، أرِه! «تاب دودان»! انهل عليه بالضرب! اضربه، اسحَقه !

لم ألاحظ من أين قدم «جونسون» إلى الحلبة، وقد تزحلق حرفيًّا من تحت الحبل وانتصب في لحظة إلى جوار «دوبوا». كما يحدث أحيانًا، بدا واضحًا، من حركته العفوية وحدها، وبالذات من كيفية انحنائه ومروره من تحت الحبل ثم انتصابه، أن جسمه يتمتع بمرونة متوازنة مثالية. كان يرتدي بُرنسًا أزرق بأشرطة طويلة. بعد أن خلع كلاهما ملابسهما لم يكن للفارق بينهما إلا أن يسفع العين؛ فقد بدا «دوبوا» أعرض من خصمه وأثقل وزنًا بكثير. رأيت مرة أخرى كتفيه المدوَّرتين المتينتين وصدره المشعر وساقيه المكتنزتين العضليتين. ما أذهلني في «جونسون» أكثر من أي شيء هو نحافته، أضلاعه البارزة المرئية بوضوح، ذراعاه وساقاه التي بدت دقيقة جدًّا مقارَنة بذراعي «دوبوا» وساقيه. لكن حين أنعمت النظر رأيت أن له قفصًا صدريًّا ضخمًا، ومنكبين عريضين، وساقين جميلتين أشبه بسيقان راقصي الباليه، وعلى جسمه الأجرد كانت عضلاته المسطحة الصغيرة تتحرك بسهولة وسلاسة تحت جلده اللامع الرائع. كان أشقر، ووجهه غير وسيم وملامحه كثيرة التغير. من حيث المظهر كان يمكن إعطاؤه تسعة عشر عامًا؛ لكنه في الواقع كان في الرابعة والعشرين. صفق الجمهور له

أيضًا، لكن ليس كما صفق لـ«دوبوا» بالطبع. انحنى من دون أن يبتسم، وعند دق الجرس بدأت المباراة .

بدا لي مقلقًا على الفور أن وضعية «جونسون» الدفاعية شبيهة بوضعية «ديمبسي» التقليدية ـ كلتا القبضتين على مستوى العينين تقريبًا ـ ومن الواضح أنها لم تكن مناسبة للمباراة ضد «دوبوا»، ذلك أنها تترك جذعه كله مكشوفًا تمامًا. لكنني، بعد الجولة الأولى، أدركت خطئي؛ فدفاع «جونسون» الحقيقي لم يكن يكمن في هذه الوضعية أو تلك وإنما في سرعة حركته غير العادية. بدأ «دوبوا» المباراة بوتيرة مندفعة لم تكن من طبعه؛ يبدو أنه كان يلتزم بتعليمات مديره المسبقة بدقة. كان واضحًا أنه قد تدرب بشكل رائع، إذ لم يسبق لي قط أن رأيته في هذه الصورة المثالية. كنت أرى بوضوح، من حيث أقف، لكماته المتواصلة وصوتها الإيقاعي الخامد الشبيه من بعيد بدبيب خافت وغير منتظم، وكانت تصيب صدر «جونسون» المكشوف، الذي كان يتراجع دائرًا حول الحلبة. كان هجوم «دوبوا» من الجموح بحيث إن انتباه الجمهور كله كان منصبًّا عليه فقط، وبدا أن لا أحد يفكر في «جونسون»؛ قال أحد الجالسين إلى جواري بصوت عالٍ ممتعضًا :

ـ إنه غير موجود، لا وجود له في الحلبة، إنني لا أرى حتى ظله !

وصاح صوت نسائي ما :

ـ هذه ليست مباراة بل مجزرة !

«دوبوا»، متشجعًا بالجمهور، انقض على خصمه بمزيد من الشراسة؛ كانت تُرى كتفاه المدورتان اللتان تتحركان بسرعة، وحركة ساقيه الضخمتين الثقيلتين، ومن الجانب بدا واضحًا أن مقاومة هذه الماكينة الحية الكاسحة مستحيلة. كان هذا رأي الجمهور كله، والقلة القليلة من الحضور المحافظين على رباطة جأشهم ويتابعون المعركة بانتباه لم يكن لهم إلا مشاطرة هذا الرأي .

صاح جاري :

ـ إنها القصة الأبدية مع الأمريكيين! يجترحون المعجزات في أمريكا، وفي أوروبا يضربونهم كيفما شاءوا !

بسبب الوتيرة السريعة جدًّا التي جرت بها الجولة الأولى لم أستطع الحكم على مدى أهلية «جونسون» للأمر، إلا إنني لاحظت أثناء الاستراحة أنه يتنفس بانتظام وهدوء، وارتسم على وجهه التعبير المشدود والواثق الذي لاحظته في صوره في الصحف .

الجولتان الثانية والثالثة كانتا تكرارًا للأولى. لم أعتقد قط أن «دوبوا» قادر على شن هجوم سريع وضار كهذا، لكن كان قد بات واضحًا أنه لن يتمكن من تنفيذ «الكور-آ-كورً » الذي كان «جونسون» ينأى بنفسه عنه طوال الوقت. كان «دوبوا» يسعى إلى ذلك بالتحديد، ولم يبخل بأي جهد في سبيل ذلك. كان جسمه يلمع من العرق، لكن لكماته تلاحقت بالإيقاع السابق نفسه ولم تضعف لحظة. ظل «جونسون»

يتراجع طوال الوقت وهو يدور دورات كاملة تقريبًا حول الحلبة. وفي نهاية الجولة الرابعة، حين بدا أن «دوبوا» قد ربح المباراة تقريبًا وأنه لم يتبقَّ له إلا القيام ببعض الأمور الشكلية لحسمها، ظلت اللكمات تنهال على «جونسون»، الذي ظل واقفًا على قدميه بأعجوبة. صاحت أصوات حادة من الأعلى :

ـ «كو دو جراس»! الضربة القاضية! آن أن تقضي عليه يا «ميميل »!

ثم حدثت فجأةً حركة خاطفة في الحلبة، لشدة سرعتها لم يلحق أحد ـ بكل معنى الكلمة ـ أن يلحظها، ودوَّى على الفور الصوت الأصم لجسد ساقط، ورأيت «دوبوا» يهوي بكل ثقله على الأرض. كان هذا غير متوقع وغير محتمل بحيث دوَّى عبر «الباليه دي سبور» الضخم برمَّته هديرُ الحشد المتزامن، الشبيه بهبوب ريح عاصفة. الحَكم نفسه ذُهل إلى درجة أنه لم يبدأ عد الثواني فورًا. ظل جسد «دوبوا» بلا حراك حتى الثانية السابعة، وفي الثامنة دوَّى صوت الجرس معلنًا نهاية الجولة .

من الجولة الخامسة اتخذت المباراة طابعًا مختلفًا تمامًا. كما بدا أنه ليس في الحلبة سوى «دوبوا» حتى الاستراحة الرابعة، كذلك عندها حل محله «جونسون»، وآنذاك فقط بات في الإمكان تثمين مزاياه غير العادية. كان هذا درسًا في الملاكمة الكلاسيكية، وبدا «جونسون» معلمًا معصومًا غير مؤهل لارتكاب أي غلطة، فضلاً عن أنه كان جليًّا أنه يرأف بخصمه. كان «دوبوا»، شبه المصعوق، يتحرك الآن خبط

عشواء ويصطدم باستمرار بقبضة «جونسون». سقط أيضًا مرات عدة، لكنه كان ينهض بجهود خارقة، وعند اقتراب النهاية كفَّ تقريبًا عن الدفاع، مغطيًا وجهه بيديه في عجز، محتملاً كل اللكمات ببسالته المعهودة، الواعية بالكاد هذه المرة. كانت إحدى عينيه مغمضة، ويسيل على وجهه الدم، فكان يلعقه بحركة آلية، مبتلعًا لعابه بصوت مسموع. لم يكن مفهومًا لماذا لا يوقف الحكم المباراة. أسبل «جونسون» يديه بضع مرات في منتصف الجولة ناظرًا في تساؤل إلى «دوبوا» تارة وإلى الحَكم تارة، وسمعته بوضوح حين قال :

ـ «بات هيز ديد»! لكنه ميت !

إلا إنه هزَّ كتفيه بعد ذلك وواصل الاستعراض، الذي لم يعد له لزوم، لفنه المدهش. وفقط في بداية الجولة السادسة، بالحركة الخاطفة نفسها لكن التي رآها الجميع هذه المرة، أصابت قبضته اليمنى ذقن «دوبوا» بدقة وقوة غير عاديتين، وحُمل «دوبوا» إلى خارج الحلبة غائبًا عن الوعي. تعالى الهدير والصراخ في الصالة، عديم الشكل والمعنى، وبدأ الجمهور يتفرق ببطء .

كان وابل المطر الشتوي ينهمر بلا توقف. خرجنا أنا ورفيقتي، أوقفتُ سيارة أجرة وسألتها إلى أين ستذهب .

قالت من دون أن تغلق باب السيارة، وكانت قد أصبحت في الداخل :

ـ كنتَ في منتهى اللطف، ولا أعرف كيف أشكرك .

قلت :

ـ أعرض عليكِ أن نحتسي قهوة، فهذا مفيد بعد المشاعر القوية .

وافقت، وتوجهنا إلى مقهى ليلي في شارع «روايال». كانت قطرات المطر تتدحرج على زجاج السيارة وهي تلمع لمعانًا باهتًا في ضوء المصابيح .

سألتْ :

ـ لماذا اعتقدتَ أن «جونسون» هو من سيربح المباراة؟

أوردت لها بالتفصيل أسبابي في هذا الخصوص .

ـ أتابعت الصحف الأمريكية؟

ـ هذا واجبي المهني .

صمتتْ. لسبب ما شعرتُ بعدم الراحة في حضورها، وبدأت آسَف لكوني دعوتها إلى المقهى. كل مرة كانت السيارة تقع فيها تحت أضواء المصابيح كنت أرى وجهها البارد والهادئ، وبعد بضع دقائق قلت في سرِّي: لماذا أذهب حقًّا لشرب القهوة مع هذه المرأة المجهولة التي يخلو وجهها من التعابير كما لو أنها تجلس في صالون حلاقة أو عربة مترو؟

قالت بعد بعض الوقت :

ـ لستَ كثير الكلام بالنسبة إلى كونك صحفيًّا .

ـ لقد أخبرتك بالأسباب التي جعلتني أعتقد أن «جونسون» سيربح المباراة .

ـ وهل هذه هي حدود إمكاناتك كمحادث؟

ـ لا أدري ما المواضيع التي تثير اهتمامك. افترضت أنها الملاكمة بشكل رئيس .

قالت :

ـ ليس دائمًا .

في هذه اللحظة توقفت السيارة، وبعد دقيقة كنا نجلس إلى طاولة صغيرة نحتسي القهوة. آنذاك فقط أنعمت النظر كما ينبغي إلى رفيقتي، أو الأصح لاحظت إحدى مزاياها؛ كان فمها كبيراً بصورة غير متوقعة، مع شفتين ممتلئتين نهمتين، وكان هذا يجعل تعبير وجهها يفتقر إلى الانسجام: كان فيه حتمًا شيء ما مصطنع، لأن نقطة التقاء جبينها وجزء وجهها السفلي كانت تعطي انطباعًا مزعجًا بعض الشيء بأن ثمة خطأً تشريحيًّا ما. لكن عندما ابتسمت أول مرة، كاشفة عن أسنانها المنتظمة وفاتحة فمها قليلاً، ارتسم على وجهها فجأةً تعبير فتنة دافئة وشهوانية

بدا قبل لحظة فقط محالاً تمامًا أن يظهر على وجهها. تذكرت مرارًا، فيما بعد، أنني منذ تلك اللحظة بالتحديد كففت عن الشعور تجاهها بعدم الراحة الذي كان يقيدني حتى ذلك الوقت. شعرت بالراحة والانطلاق. سألتها عن شتى الأمور المتعلقة بها شخصيًّا. قالت إن كنيتها «آرمسترونج»، وإن زوجها توفي منذ وقت قريب، وإنها تعيش في باريس وحدها .

ـ زوجك كان...؟

أجابت أن زوجها كان أمريكيًّا، مهندسًا، وأنها لم تلتقه خلال السنتين الأخيرتين: هي كانت في أوروبا وهو بقي في أمريكا. لقد تلقت برقية تُنبئها بموته المفاجئ بينما كانت في لندن .

قلت :

ـ لكْنَتُك ليست أمريكية وإنما أجنبية بحياد، إن أمكن القول .

ابتسمت مرة أخرى تلك الابتسامة التي كانت تثير دائمًا انطباعًا مفاجئًا وأجابت بأنها روسية. كدت أثب من مكاني، ولا أدري حتى الآن لماذا بدا لي ذلك مثيراً للدهشة آنذاك .

ـ أوَلم ينتبك الشك في أنك تتعامل مع مواطنة من بلدك؟

أخذت تتحدث بلغة روسية نقية جدًّا .

ـ وافقيني على أن افتراض ذلك كان صعبًا .

ـ أما أنا فكنت أعرف أنك روسي .

ـ أنحني لفطنتك. وكيف ذلك إن لم يكن سرًّا؟

قالت متضاحكة :

ـ من عينيك .

ثم هزت كتفيها وأردفت :

ـ لأن صحيفة روسية كانت تتدلى من جيبك .

كانت الساعة قد أصبحت الثانية صباحًا. عرضتُ إيصالها إلى البيت. أجابت بأنها ستذهب وحدها ولا تريد إزعاجي .

ـ الأرجح أن واجباتكَ المهنية تستدعيك، أليس كذلك؟

ـ أجل، يجب أن أعد تقريرًا عن المباراة .

قررت بإصرار عدم سؤالها عن مكان إقامتها، وعدم التماس أي لقاءات جديدة بها. خرجنا معًا، أوصلتها إلى السيارة الأجرة وقلت :

ـ أتمنى لكِ نومًا هانئًا، مع السلامة .

مدت لي يدها، التي سقطت عليها بضع قطرات من المطر، وأجابت مبتسمة للمرة الأخيرة :

ـ تصبح على خير .

لا أدري إن كان هذا قد حدث فعلاً أم خُيل إليَّ ببساطة ما سمعت. شعرت أن نبرة جديدة ظهرت في صوتها واختفت على الفور، شيئًا من قبيل ابتسامة صوتية لها المعنى نفسه الذي لحركة شفتيها وأسنانها الأولى، الشهوانية إلى حد بعيد، التي كففت بعدها عن الشعور بعدم الراحة في حضورها. من دون أن أفكر لحظة فيما أقول، وناسيًا تمامًا القرار الذي اتخذته بعدم سؤالها أي شيء، وكأنما لم أتخذه قط، قلت :

ـ يؤسفني مفارقتكِ من دون معرفة اسمك وكنيتك، ولا عنوانك. ففي النهاية، إن كان اهتَمامك بالرياضة يتسم بالديمومة فقد أكون مفيدًا لكِ مرة أخرى .

قالت :

ـ هذا ممكن. اسمي «يلينا نيكولاييفنا». إليك عنواني ورقم هاتفي. ألن تدوِّن؟

ـ لا، سأتذكر .

ـ أتثق حقًّا بذاكرتك؟

ـ ثقة مطلقة .

قالت إنها تكون في المنزل حتى الواحدة ظهرًا ومن السابعة حتى التاسعة مساءً، ثم صفقت باب السيارة وغادرت .

مضيت سيراً على الأقدام باتجاه المطبعة؛ كانت ليلة ضبابية جدًّا ولم يتوقف هطول المطر لحظة واحدة. سرت رافعًا ياقة معطفي وأنا أفكر في أمور مختلفة في الوقت نفسه .

إن جدارة «جونسون»، التي كانت تعد حتى الآن محل جدال، تجلت أمس بمنتهى اليقين بحيث إن هذه المسألة باتت الآن محسومة تمامًا بأكثر المعاني إيجابية. كان يجب افتراض ذلك بالمناسبة، إذ إن نتيجة المباراة كانت معروفة مسبقًا حتى لبعض الصحفيين الذين كانت لديهم معلومات عن مسيرة بطل العالم الجديد .

قالت: «واجباتك المهنية تستدعيك»، وقعُ هذا الكلام ليس روسيًّا تمامًا. بيد أن هذا كان الخطأ الوحيد الذي اقترفته .

لا يمكن لبسالة «دوبوا» إلا أن تثير الاحترام. عيوبه تلك، التي لم يكن لها دور مميز في مواجهاته السابقة مع ملاكمين متوسطي المستوى في نهاية المطاف، في الحالة الراهنة، في مباراة ضد خصم لا غبار عليه تقنيًّا، مثل «جونسون»، قضت عليه .

فيها شيء جذاب بصورة غير طبيعية، وهذا التنافر في وجهها لعله يوافق شذوذًا نفسيًّا ما خارجًا عن المألوف .

إن ما اتفق عليه الجميع وتكرر دائمًا حول «جونسون» ـ وبالتحديد أن لكمته لا تتمتع بالقوة الكافية للضربة القاضية ـ ينبغي الافتراض أنه ليس سوى أسلوب تكتيكي كرره مدير أعماله بنجاح دائم. كان ذلك خدعة إعلانية «أو روبور»، بالمقلوب، تميِّز الصحافة الرياضية الأمريكية .

أود لو أعرف ما سيحدث لاحقًا. شارع «أوكتاف فوييه» غير بعيد عن جادة «هانري مارتان»، إن لم أكن مخطئًا .

كل انتصارات «دوبوا» السابقة مردها إلى أن أحدًا من خصومه لم يفهم ذلك الأمر البسيط، ألا وهو ضرورة تجنب «الكور-آ-كور » ، أو لم يتمتع بالتقنية اللازمة لتنفيذ هذه الخطة البسيطة. في حين أن «دوبوا» ما إن حُرم إمكانية اللجوء إلى «الكور-آ-كور» حتى فقد تفوقه الرئيس. أدرك «جونسون» ذلك بفضل سرعة البديهة التي يتصف بها، ومن تلك اللحظة كان «دوبوا» بحكم المقضي عليه .

لعل أمامي رحلة روحية جديدة وينتظرني سفر في المجهول، كما سبق أن حدث في حياتي .

فلنكن صريحين حتى النهاية: على الرغم من جدارة «دوبوا» التي لا شك فيها، فإن تطلعاته إلى لقب بطل العالم كانت، بالطبع، نتيجة سوء فهم. إنه واحد من أفضل الملاكمين المثابرين الذين نعرفهم، إلا إنه لم

يمتلك يومًا ذلك الجمع الاستثنائي والنادر جدًّا للمعطيات المتنوعة، الذي من دونه لا يملك المرء الحق في أيٍّ من المراكز الأولى في تاريخ الملاكمة. طوال سنوات كثيرة، من بين مئات الملاكمين، لم يبقَ في ذاكرة المؤرخين سوى بضعة أسماء، آخرهم: «كاربانتيه» و«ديمبسي» و«تانيٍّ». إن كان في الإمكان وضع «جونسون» في صفهم ـ بشيء من التعسف إلى حدٍّ ما ـ فإن «دوبوا» في هذه المقارنة لا يمكنه، بالطبع، إلا أن يلعب دورًا محزنًا، الأمر الذي لا يحطُّ قطعًا من قدره على أي حال .

الأرجح أنني ما كنت لألتقيها مجددًا لو لم تظهر في صوتها تلك النبرة المفاجئة .

بلغتُ مقهى صغيراً قرب المطبعة، وكتبت المقالة التي ألَّفتها في ذهني في الطريق، ثم سلمتها للمُنضِّد ومضيت إلى المنزل ونمت حتى الساعة الثالثة والنصف صباحًا. عندما أغمضت عيني رأيت أمامي للمرة الأخيرة جسدَي الملاكمَين العاريَين، ومربع الحلبة المضاء، وابتسامة رفيقتي غير المتوقعة، وغفوت، أخيراً، على وقع صوت المطر الذي كان يصلني عبر نافذة غرفتي نصف المفتوحة .

كنت منشغلاً جدًّا طوال الأسبوع التالي، فقد كنت بحاجة إلى المال لدفع ثمن أشياء كثيرة لم أفكر فيها تقريبًا في الآونة الأخيرة، ولهذا رحت أكتب بضع ساعات كل يوم. وحيث إن الأمر كان يتعلق غالبًا بما لم أكن مستعدًّا له، فقد اضطررت إلى التعرف مسبقًا إلى كمٍّ لا بأس به من المواد .

هكذا كانت الحال مع المرأة المُقطَّعة إلى قطع: كان لا بدَّ من متابعة كل الأنباء في الصحف وصولًا إلى اللحظة التي بدأتُ منها التحقيق؛ وكذلك الأمر مع الفضيحة المالية، ومع اختفاء شاب في الثامنة عشرة. كان هذا العمل كله بلا جدوى، إذ لم يتم العثور على قاتل المرأة، وكان هذا جليًّا منذ بدء التحقيق الذي أوضح أن ما من آثار تدل على المجرم؛ وإفلاس المؤسسة المالية أيضًا لم يفضِ إلى شيء، وأُعطيت تعليمات للصحفيين بعدم ذكر الأسماء، فقد كانَت هذه الأسماء تعود إلى شخصيات معروفة وموقرة جدًّا، وبالتالي كان واضحًا أن سلسلة المقالات المتعلقة بالانهيار المصرفي لها طابع مؤقت، وبالفعل اختفى أي ذكر للموضوع بعد بضعة أيام، وكان الكل يعرف بالمبلغ الذي دُفع لإسكات وسائل الإعلام، لكن هذا لم يغير حقيقة أن المادة استُنفدت. وأخيراً، قصة الشاب أيضًا لم تكن سرًّا بالنسبة إلى أيٍّ منا، فقد كان سبب اختفائه هو «أخلاقياته الخاصة»، كما تسمى باللغة الرسمية؛ ذلك أن الشاب أُخذ بمحض إرادته إلى فيلا خارج المدينة تعود إلى فنان تشكيلي معروف، يتميز أيضًا بـ«أخلاقياته الخاصة»، لكن مع ميول مختلفة بعض الشيء، فقد انتهت معاشرته للشاب نهاية رغيدة تمامًا. كان هذا الفنان يرسم صور الرؤساء والوزراء، وكان صديقًا مقربًا لكثير من الشخصيات الحكومية، التي أَلف زيارتها، وفي التقارير الصحفية كان يُكتب عن هذه اللقاءات كما فَي السابق: «لاحظنا وسط الحضور فناننا المعروف...». كان الشاب يستمتع بسعادته الخاصة ـ والفريدة من نوعها ـ على مبعدة عشرين كيلومتراً من باريس، بينما كانت الصحف تنشر صوره مع والديه، وبيانات محققي «شرطة الآداب»، وما إلى ذلك. كتبتُ في أسبوع واحد أربعة عشر مقالًا عن هذه الأحداث

الثلاثة، وهذا رفع رصيدي فورًا. طالب مدير أعمال «دوبوا» بالثأر، متهمًا الحَكم بالتحيز، بل حتى إنه كتب نص بيان «دوبوا»، الذي أوضح أنه اتبع تكتيكًا محددًا تمامًا، وكان ينوي الفوز في القتال في الجولات الأخيرة، وأن ضربة «جونسون» القاضية كانت مصادفة جلية. بالإضافة إلى ذلك، أصر مدير الأعمال على شجب النبرة التي لا تُغتفر ـ حسب رأيه ـ التي كُتبت بها معظم التقارير حول المباراة، مشيراً إلى أنه شعر بالخجل من قراءة هذه السطور في صفحات وسائل الإعلام الباريسية. في هذا الخصوص نُشرت بضعة مقالات أخرى كان هدفها الرسمي هو إظهار الحقيقة، لكنْ مدير الأعمال وكذلك الصحفيون كانوا يعلمون جيدًا أن الأمر لم يكن يتعلق بالحقيقة على الإطلاق وإنما بمصالح المدير و«دوبوا»، الذي سينخفض أجره في المباريات اللاحقة بعد هزيمته. كان هذا أمرًا محتومًا تمامًا، لكن كان ينبغي القيام بكل ما أمكن بحيث لا يكون التخفيض كبيراً جدًّا .

شعرت بنفسي في تلك الأيام خفيفًا وقلقًا، تقريبًا كما في مرحلة فتوتي المبكرة، حين توجب عليَّ السفر في رحلة بعيدة قد لا أعود منها. كان التفكير في رفيقتي مساء مباراة «جونسون»-«دوبوا» لا يفارقني، وكنت أعلم بدقة حدسية تمامًا أن لقائي القادم بها ليس إلا مسألة وقت. كانت قد بدأت في داخلي الحركة النفسية والجسدية التي كانت ظروف حياتي الخارجية في مواجهتها بلا حول ولا قوة. كنت أفكر في ذلك بقلق مستمر، فقد كنت أعلم أنني في الحالة الراهنة أخاطر بحريتي أكثر من أي وقت مضى، وللتحقق من ذلك كان يكفي النظر إلى عينيها، ورؤية ابتسامتها، والشعور بجاذبيتها الفريدة والعدوانية بطريقة ما، التي

شعرت بها منذ أمسية تعارفنا الأولى. لم أكن أعلم، بالطبع، المشاعر التي شعرت هي بها تجاهي تلك الليلة من ليالي فبراير. لكن على الرغم من أنني قابلتها ساعة فقط ليس أكثر ـ عندما كنا في المقهى بعد المباراة ـ فقد بدا لي أن ابتسامتها ونبرة صوتها الأخيرة لم تكونا عَرَضيتين وأن هذا لا بد أن يجر وراءه أمورًا أخرى، قد تكون رائعة وقد تكون محزنة، أو قد تكون محزنة ورائعة في الوقت نفسه. لكن لعلِّي كنت مخطئًا بالطبع ولعل أحاسيسي آنذاك كذلك كانت غير صحيحة وعَرَضية، مثل الظلال المغبشة والمائعة للمنازل والشوارع والناس عبر ستار المطر البليل والضبابي هذا .

تذكرت أنها آنذاك، عند الوداع، لم تسأل عن اسمي. كانت تنتظر إما زيارتي وإما اتصالي الهاتفي، بتلك الثقة المطمئنة واللامبالية تقريبًا، التي بدت لي من طبعها بشكل عام .

اتصلت بها في الساعة العاشرة صباحًا، بعد المباراة بثمانية أيام تمامًا .

سأل صوتها :

ـ ألو، من المتكلم؟

نطقت باسمي وقلت :

ـ مرحبًا. أردت أن أعرف كيف حالك .

ـ آه، أهذا أنت؟ شكرًا لك، رائعة. ألم تكن مريضًا؟

ـ كلا، لكن وقعت أحداث كثيرة في هذه الفترة حرمتني نعمة سماع صوتك .

ـ أحداث ذات طابع شخصي؟

ـ لا، بل ثانوية ومملة جدًّا، خصوصًا في الحديث الهاتفي .

ـ في وسعك أن تخبرني بها وجهًا لوجه أيضًا .

ـ من أجل ذلك ينبغي أن تكون هناك إمكانية للقائك .

ـ أنا لا أختبئ، يمكن تدبر ذلك بسهولة. أين ستتعشى اليوم؟

ـ لا أدري، لم أفكر في ذلك .

ـ تعال إليَّ قرابة السابعة، في السابعة والنصف .

ـ أخشى أن أستغل لطفك .

ـ لو كنا نعرف بعضنا بعضًا بصورة أفضل قليلاً لأجبتك... أتعلم بمَ كنت سأجيبك؟

ـ لا يصعب تخمين ذلك .

ـ لكن بما أننا لا نعرف بعضنا بعضًا كفاية فلن أتلفظ بهذه العبارة .

ـ أقدر لطفك .

ـ أنتظرك مساءً إذن؟

ـ سأحرص على أن أكون دقيقًا .

في الساعة السابعة والنصف دخلت المنزل الذي تقيم فيه؛ كانت شقتها في الطابق الثاني. ما إن قرعت الجرس حتى فُتح الباب، فأوشكت أن أتراجع خطوة من الدهشة: كانت تقف أمامي امرأة خلاسية ضخمة، لم تفُه بكلمة ونظرت إليَّ في صمت بعينيها الجاحظتين على وسعهما. ظننت للوهلة الأولى أنني أخطأت في الطابق، لكن حين سألت إن كنت أستطيع رؤية «مدام آرمسترونج» أجابت :

ـ «يس». «وي، موسيو». نعم، يا سيدي .

واستدارت وتوجهت إلى الباب الثاني الذي يفضي إلى الشقة فيما يبدو؛ سارت أمامي، مالئة بجسمها الضخم الرواق بأكمله، وقادتني إلى غرفة الجلوس؛ كانت هناك لوحات تصور الطبيعة الصامتة، منتقاة عشوائيًّا كما بدا لي، معلقة على الجدران، وعلى الأرض ثمة سجادة زرقاء، وكان الأثاث من المخمل الأزرق. أنعمت النظر خلال بضع ثوانٍ إلى

طبق بيضاوي الشكل مرسوم عليه بصباغ أصفر وفيه برتقالتان مقطعتان وثلاث غير مقطعة، وفي هذه اللحظة دخلت «يلينا نيكولاييفنا»، وكانت ترتدي ثوبًا بنيًّا من المخمل يليق بها جدًّا، تمامًا كتسريحة شعرها التي أبرزت الفتنة الجامدة لوجهها الخالي من التبرج تقريبًا، لكن عينيها بدتا لي هذه المرة أكثر حيوية بكثير منهما في لقائنا الأول .

سلمت عليها وقلت إن المرأة الخلاسية، التي فتحت لي الباب، أثارت لديَّ انطباعًا قويًّا. ابتسمت «يلينا نيكولاييفنا» وقالت :

ـ اسمها «آني»، وأنا أدعوها «ليتل آني» أو «آني الصغيرة». لعلك تذكر، كان هناك فيلم بهذا الاسم .

ـ نعم، «ليتل آني» يناسبها كثيراً! من أين أتيتِ بها؟

شرحت لي أن «آني» التحقت بالخدمة لديها في نيويورك وتسافر معها الآن إلى كل مكان، وأنها تتكلم الفرنسية لكونها عاشت في كندا بعض الوقت؛ فضلاً عن أنها طاهية رائعة، وسرعان ما ستتوفر لي إمكانية التأكد من ذلك. كانت «آني» طباخة رائعة بالفعل، فأنا لم أتناول طعامًا شهيًّا كهذا منذ مدة طويلة .

سألتني «يلينا نيكولاييفنا» عن عملي خلال هذا الأسبوع. أخبرتها عن المرأة المُقطَّعة قطعًا، وعن حالات الإفلاس المتوالية، وعن اختفاء الشاب، وأخيراً عَن المقالة الصحفية لمدير أعمال «دوبوا ».

ـ أهذا هو العمل الصحفي؟

ـ تقريبًا .

ـ وهل الأمر على هذا النحو دائمًا؟

ـ غالبًا .

ـ وأنت تعتبر أن هذا يناسبك؟

كنت أحتسي القهوة وأدخن وأفكر في مدى بُعد هذا الحديث عن أحاسيسي ورغباتي. كنت ثملاً في صمت جراء حضورها، وكلما طال الأمر ازداد إحساسي بفقدان أي سلطة لي على هذا الوضع الذي لا تستطيع أي جهود التغلب عليه. كنت أعلم أنني أتصرف بلباقة تمامًا، وأن عينيَّ رائقتان وسأبقى محادثًا طبيعيًّا، لكنني أيضًا كنت أعرف جيدًا أن هذا المظهر الخارجي لا يمكنه أن يضلل «يلينا نيكولاييفنا» وأنها أدركت بدورها أنني أعرف ذلك. كان الأكثر بداهة أن أقول لها: «لستِ مخطئة، يا عزيزتي، إن اعتبرت أن هذا الحديث لا علاقة له البتة بما أشعر به في اللحظة الراهنة، وَالأرجح بما تشعرين به أنت أيضًا. وكذلك تعلمين جيدًا أي كلمات كان عليَّ أن ألفظها»، إلا إنني، بدلاً من ذلك، قلت :

ـ لا بالطبع، كنت أفضل الاشتغال في الأدب لكنني، للأسف، لا أتمكن من ذلك .

ـ أكنت تفضل كتابة القصص العاطفية؟

ـ ولِمَ القصص العاطفية تحديدًا؟

ـ يبدو لي أن هذا هو الجنس الأدبي الذي يجب أن تكتبه .

ـ أتقولين لي ذلك بعد تعارفنا في أثناء المباراة وبعد أن ثمنتِ، كما أرجو، تكهناتي بنتيجتها؟

ابتسمت ثانيةً :

ـ قد أكون مخطئة، لكنني لسبب ما أشعر طوال الوقت أنني أعرفك منذ زمن طويل، مع أنني أراك للمرة الثانية في حياتي .

كان هذا اعترافها الأول والخطوة الأولى التي خطتها .

ـ يقال إن هذه إشارة مقلقة جدًّا .

قالت بابتسامتها الشهوانية المبهمة :

ـ أنا لا أخاف .

رأيت فمها الباسم وأسنانها المنتظمة القوية واللون الأحمر الباهت لشفتيها المصبوغتين قليلاً. أغمضت عينيَّ، شعرت بهيجان شهواني

عاصف، لكنني بذلت جهدًا خارقًا لتمالك نفسي وبقيت جالسًا في مقعدي بمظهر هادئ خارجيًّا ـ حسب اعتقادي ـ على الرغم من أن كل عضلة في جسمي كانت مشدودة إلى حد الألم .

قال صوتها البعيد :

ـ إنك تغمض عينيك، لعلك تريد النوم بعد الأكل؟

ـ كلا، تذكرت إحدى العبارات فحسب .

ـ أي عبارة؟

ـ عبارة قالها الملك سليمان .

ـ لقد ذهبنا بعيدًا أنا وأنت .

«أنا وأنت»، كانت هذه حركتها الثانية .

ـ وماذا تقول هذه العبارة؟

قلت :

ـ إنها تتميز بشيء من ترف المجاز الذي يبدو على أسماعنا جدليًّا بعض الشيء، بالمعنى البلاغي بالطبع. لكنني آمل أن تأخذي في

الاعتبار حقيقة أن هذا كُتب منذ زمن بعيد جدًّا .

ـ يا إلهي، كم أنت كثير الكلام! أي عبارة؟

ـ قال الملك سليمان إن هناك ثلاثة أشياء لا يفهمها .

ـ ما هي؟

ـ درب الأفعى على الصخرة .

ـ هذا حسن .

ـ ودرب النسر في السماء .

ـ أيضًا حسن .

ـ ودرب قلب المرأة إلى قلب الرجل .

قالت بنبرة شاردة غير متوقعة في صوتها :

ـ يبدو أن لا أحد يفهم هذا. وأنت ترى أن العبارة غير موفقة؟ لماذا؟

ـ لا، لعل الترجمة رديئة. على أي حال، وقْع القسم الأخير ليس جيدًا. «درب قلب المرأة إلى قلب الرجل»، فيها شيء شبيه بما في كتاب

القواعد المدرسي .

ـ لن أذهب إلى هذا البعد في التحليل البلاغي. وهل أنت معجب بالملك سليمان؟

ـ مع بعض التحفظات. كثير مما كتب لا يبدو لي مقنعًا بما يكفي .

كان مساءً شتويًّا ومكفهرًّا، وكانت الغرفة دافئة جدًّا. كانت «يلينا نيكولاييفنا» جالسة على مقعد قبالتي واضعة رجلاً فوق رجل، وركبتاها مرئيتان لي، وكلما نظرت إليهما شعرت بالاختناق وانقباض النفس. شعرت أن هذا كله يغدو فاحشًا من طرفي. حاولت أن أثير في مخيلتي تلك التصورات التي ألوذ بها دائمًا، كما يلجأ آخرون إلى أساليب تقنية للتذكر. عندما كان يتملكني بهذه الشدة شعور ما أعتبره لسبب ما في غير محله أو سابقًا لأوانه، كحالي الآن، كنت أتخيل حقلاً ثلجيًّا هائلاً أو صفحة البحر المتموجة، وقد ساعدني هذا دائمًا تقريبًا. هذه المرة حاولت أن أرى أمامي، هناك حيث تجلس «يلينا نيكولاييفنا»، سهلاً ثلجيًّا، لكن عبر بياضه الناصع المتخيَّل كان يبرز بمزيد من الحدة والقوة هذا الوجه الجامد بشفتيه الحمراوين .

نهضت أخيراً وشكرتها على حسن ضيافتها وهممت بالخروج، ولكن عندما مدت لي يدها الدافئة وأحسست بملامستها أصابعي نسيت على الفور نيتي بالمغادرة، كما نسيت آنذاك، عندما ودعتها في الليل، أنني قررت عدم سؤالها أين تقيم وعدم السعي للقائها. جذبتها إليَّ فصعَّرت

خدها من الألم الذي سببته لها عن غير قصد حين ضغطت على يدها بشدة، وحين ضممتها أحسست بسطح جسدها كله. أذكر أنني لم أدرك إلا في وقت متأخر أن ذلك الإحساس في تلك اللحظة كان مُتخيلاً حتمًا، فقد كانت ترتدي ثوبًا مخمليًّا سميكًا جدًّا .

كنت أعلم أن أي امرأة أخرى في مكانها كانت ستقول لي تلك العبارة المكرورة نفسها: «هل فقدت عقلك؟ ».

لكنها لم تقلها. بدا لي أنني أقترب من وجهها تمامًا كما لو في حلم عن الموت. لم تأت بأي حركة ولم تقاوم، لكنها في اللحظة الأخيرة أدارت رأسها إلى اليسَار، مقدمة لي خدها. كان ثوبها مزررًا من جهة الظهر بصف طويل من الأزرار المخملية المرصوصة جدًّا وغير الزلقة. حين فككت الزرين العلويين قالت، كذلك بالصوت الهادئ نفسه، لكن المتكدر بعض الشيء، كما بدا لي :

ـ هنا لا يجوز، انتظر. دعني دقيقة .

أفلتُّها، فمضت إلى غرفة أخرى، وأنا تبعتها. لم نخطُ سوى بضع خطوات، لكنني في هذه الثواني تمكنت أن أفكر في السرعة غير المتوقعة، وغير الطبيعية في الحقيقة، التي حدث فيها هذا كله. لم يكن يفصلني عن مساء لقائي الأول بها إلا ثمانية أيام، لكن هذه المسافة كانت طويلة وهائلة. كنت أعلم أن مشاعري تتطور عادة ببطء شديد، على الرغم من عنفوانها الفطري الذي كان أكبر عيوبي؛ لكنني هذه

المرة طوال الأيام الثمانية كنت واقعًا تحت سلطان حركتها، ومع ذلك لم أستطع حتى اللحظة الأخيرة تصور مدى عمق استحواذها عليَّ إلى الأبد. أظن أن «يلينا نيكولاييفنا»، بحكم التطابق الحسي غير المفهوم لأي انجذاب متبادل، شعرَت تقريبًا بما شعرت به؛ كانت أحاسيسها شبيهة بأحاسيسي ـ كما أن الزجاج المحدب يشبه المقعر بتحدب متماثل هو نتيجة الحركة الثنائية نفسها. في هذا أيضًا كان يكمن ذاك الاندفاع غير المفهوم نفسه، الذي بدا بالكاد من طباعها، بل حتى أقل مني. هذه الأفكار كانت مبهمة وغير صحيحة، ككل ما شعرت به آنذاك، ولم أتذكرها إلا فيما بعد، واكتسبَت عندها ذلك الشكل الواضح تقريبًا في تصوري، والذي لا يعقل أنها كانت عليه خلال هذه الثواني القصيرة. وعلى أي حال بدت لي آنذاك غير مهمة على الإطلاق .

أدخلتني قبلها، ثم أغلقت الباب وأدارت المفتاح في القفل. كنا في غرفة صغيرة، لم أعاينها آنذاك؛ لاحظت فقط أريكة واسعة، يعلوها مصباح جداري مضاء له ظُلَّة صغيرة زرقاء، ومنضدة صغيرة، وعلى المنضدة منفضة سجائر وهاتف. جلسَت على الأريكة، فيما بقيتُ واقفًا أمامها للحظة، واستطاعت أن تقول :

ـ والآن ...

رأيت، أخيراً، عبر الغشاوة الشهوانية الهائجة جسدها بعضلاته المشدودة تحت جلد ذراعيها الرائع. استلقت على ظهرها، واضعة يديها تحت رأسها، من دون أي مظهر من مظاهر الحياء، وراحت ترنو

إلى وجهي بعينين هادئتين لا يُسبرَ غورهما ـ بدا هذا لي محالاً تقريبًا. حتى فيما بعد، عندما شعرت ـ وكانت تلك المرة الأولى في حياتي ـ باتحاد مبهم بين الشعور النفسي المحض والإحساس الجسدي، وقد غمر إدراكي كله بل حتى عضلات جسدي الأبعد كلها، كلها قطعًا، وحتى عندما قالت بنبرة بطيئة بدت غير ملائمة هنا على الإطلاق: «إنك تسبب لي الألم»، ولم يكن في قولها شكوى أو احتجاج، وحتى أيضًا بعد قليل من الوقت، عندما ارتعشت رعشة تشنجية، كانت عيناها هادئتين كذلك، كأنهما ميتتان. فقط في اللحظة الأخيرة بدتا لي فجأة نائيتين، كوقع صوتها أحيانًا .

لم يكن في الإمكان اعتبارها عشيقة رائعة، فيما يتعلق بي على الأقل، فقد كانت ردود أفعالها الجسدية بطيئة، ولحظات الجماع الأخيرة كثيراً ما كانت تجعلها تشعر بألم داخلي ما، وحينذاك كانت عيناها تغمضان ويتصعَّر وجهها لاإراديًّا. لكن اختلافها عن النساء الأخريات كان يكمن في أنها كانت تستثير التوتر الأقصى والمنهك لقواها كلها، النفسية والجسدية، وفي الشعور المبهم بأن الاقتراب منها يتطلب جهدًا تدميريًّا لا رجوع عنه، وأعتقد أن جاذبيتها القاهرة كانت تكمن في صوابية هذا الشعور المسبق الذي لا يخطئ. بعد الإحساس الأول بقربها الجسدي عرفت، بعدم احتمال مطلق للخطأ، أنني لن أنسى هذا أبدًا وأنه قد يكون آخر ما أتذكره وأنا أحتضر. عرفت هذا مسبقًا وعرفت أن شيئًا لن ينقذني من التحسر المضني الذي لا سبيل إلى إصلاحه على ذلك، كيفما انتظمت حياتي، لأن هذا سيختفي في كل الأحوال، إذ سيبتلعه الموت أو الزمن أو البعد، والقوة المُعمية لهذه الذكرى في الداخل

ستحتل في حياتي مساحة نفسية كبيرة جدًّا ولن تترك مكانًا للأمور الأخرى المقدرة لي أيضًا ربما .

كنا قد بلغنا جوف الليل، ولم تستطع «يلينا نيكولاييفنا» إخفاء تعبها. شعرت بنفسي كالمحموم، وكانت عيناي ملتهبتين، وشعرت أنني أحس بحرق غير مرئي. غادرت في الرابعة صباحًا تقريبًا؛ كانت ليلة باردة وكثيرة النجوم. أردت أن أتمشى، فرُحت أسير في الشوارع المقفرة، وحينذاك، للمرة الأولى في حياتي، شعرت بحالة من السعادة الصافية الخارقة للعادة، وحتى فكرة أن هذا قد يكون شعورًا مخادعًا لم تزعجني. تذكرت المنازل التي مررت بها، ومذاق الهواء الشتائي البارد، والريح الخفيفة خلف المنعطف ـ هذه كانت كل الأشياء التي رافقت شعوري. شعرت بسعادة صافية بالتحديد، بدت مفاجئة بصورة خاصة بعد أن رأيت أمامي لبضع ساعات هاتين العينين الهادئتين، اللتين كان في تعبيرهما بالنسبة إليَّ شيء متعالٍ، لأني لم أتمكن من تغييره .

وعندما استيقظت في اليوم التالي بدا لي كل ما كان يحيط بي وما ألفته، كل عالم البشر والأشياء الذي كانت حياتي تعبره عادة، مختلفًا ومغايرًا، كالغابة بعد المطر .

فارقتها عند الفجر تقريبًا، وفي اليوم التالي في ساعة الظهيرة توجهت ثانيةً إلى مدخل منزلها. لم أستطع تفسير ما الذي تغيَّر بالتحديد تلك الليلة، لكن كان جليًّا لي أنني لم أرَ يومًا شارع «أوكتاف فوييه»، ولا جادة «هانري مارتان»، ولا البيت الذي تعيش فيه، على هذا النحو. هذا

كله ـ الجدران الحجرية، والأشجار الخالية من الأوراق، ودرف نوافذ البيوت ودرجات السلالم ـ كل ما كنت أعرفه جيدًا ومنذ زمن بعيد، هذا كله اكتسب الآن معنًى جديدًا لم يكن له وجود حتى الآن، تمامًا كما لو أنه ديكور المسرحية الوحيدة، والأفضل بالطبع، التي يمكن للمخيلة البشرية إبداعها. كان يمكن لهذا أن يكون شبيهًا بديكور مسرحي. كان يمكن لهذا أن يكون شبيهًا أيضًا بشيء من قبيل توشيح بصري في مطلع لحن موسيقي ـ كذلك الأفضل بالطبع ـ لا يسمعه من ملايين الناس غيري، والمستعد للانبثاق في اللحظة التي سينفتح فيها أمامي الباب في الطبقة الثانية، الشبيه بآلاف الأبواب والفريد في العالم مع ذلك. بدا لي آنذاك ـ وخبرتي كلها، وكل ما عرفته ورأيته وفهمته، وكل قصص الخيانات، والشقاء، والمآسي، وعدم اليقين المأساوي لكل ما هو كائن... لم يكن في مقدور ذلك كله أن يغير قناعتي في تلك اللحظة ـ بدا لي آنذاك أنه قد حدث ما كنت أنتظره بلا جدوى طوال حياتي وما لم يكن أحد قادرًا على فهمه سواي، لأن أحدًا لم يعش كما عشت أنا بالذات، ولأن أحدًا لم يكن يعرف بالتحديد اجتماع الأشياء ذاك، الذي كان يميز وجودي. شعرت أنه لو نقص تفصيل واحد من تفاصيل قصة حياتي فإن إحساسي بالسعادة وفهمي له ما كانا ليكونا كاملين على هذا النحو. بدا لي كل شيء يقينيًّا تمامًا وفي الوقت نفسه مستحيلاً بالقدر نفسه. عندما كنت أسير في جادة «فيكتور هوجو» بدا لي فجأة أن هذا كله غير معقول، وأحسست بشيء من قبيل الدوار العقلي، كما لو أنه صفحة من كتيب للأطفال عن الاختفاءات العجيبة .

قالت لي «آني» إن المدام ستخرج حالاً وقادتني إلى غرفة الطعام. كانت

الطاولة الصغيرة معدة لشخصين مسبقًا، وعليها كأسان للنبيذ ممتلئتان، في إحداهما كان يترجرج خيط ضوء رفيع كما لو كانت ممتلئة إلى آخرها بسائل شفاف غير مرئي؛ تذكرت آنذاك أن الطقس شتوي مشمس. جلست على كرسي ورحت أدخن لفافة تبغ. لم ألحظ أنني أدخن إلا في اللحظة التي سقط فيها الرماد في كمِّي وحرق يدي .

دخلت «يلينا نيكولاييفنا» الغرفة بعد أن بدأت «آني» تقديم الفطور ببضع ثوان، وكانت قد استحمت للتو ولم تتجشم عناء ارتداء ملابسها. كانت في بُرنس الحمام، وكان شعرها ممشطًا إلى الخلف، الأمر الذي أبرز بدقة خطوط وجهها ومنحه في الوقت نفسه تعبير راحة نفسية وجسدية، مفاجئًا ومحببًا. سألتني بنبرة ساخرة لطيفة في صوتها إن كنت قد نمت جيدًا وإن كانت لديَّ شهية للأكل. أجبتها بالإيجاب من دون أن أحول نظري عنها. هي أيضًا تغيرت، مثل كل ما كان يحيط بي، فقد اختفى من وجهها تعبير الجفاء الذي عرفته حتى الآن. حين انحنت فوق الطاولة رأيت شامة كبيرة أسفل عظم ترقوتها الأيمن، فسَرت فيَّ على الفور موجة دافئة من الامتنان واللطف تجاهها، وحينئذ التقطت نظرتها الشاردة، سألتها :

ـ فيمَ تفكرين؟

ـ في أنني وإياك لم نتعارف إلا منذ مدة قصيرة ومع ذلك أشعر أنني لم أعرف يومًا أحدًا أقرب إليَّ منك .

ثم أردفت :

ـ لن أقول دومًا أشياء من هذا القبيل، لذا يستحسن ألا تعتاد الأمر .

صبت النبيذ في الكأسين ـ وكان نبيذًا مميزًا، عطريًّا وثقيلاً، وعلى الرغم من معرفتي السيئة بالنبيذ فإنني لم أستطع ألا ألحظ أنه جيد جدًّا على الأرجح ـ وقالت :

ـ نخب ماذا نشرب؟

قلت :

ـ نخب ألا نعتاد الأمر .

هزت برأسها وشربنا في صمت. وعلى الرغم من أن الفطور كان، في الحقيقة، فطورًا عاديًّا مع امرأة التقيتها قبل أسبوع وأصبحت عشيقتي أمس، وأنها لم تكن المرأة الأولى والوحيدة في حياتي، وأنني كذلك تمامًا لم أكن بدوري عشيقها الأول والوحيد؛ على الرغم من أن هذا كله لم يبدُ فيه ظاهريًّا أي شيء استثنائي أو خارق، فقد كان وقعه احتفاليًّا تقريبًا، كالكلمات التي قد يلفظها المرء مرة واحدة في الحياة وهو متوجه إلى الحرب أو مسافر إلى الأبد .

بعد الفطور جلسنا نحتسي القهوة وقتًا طويلاً جدًّا. في نور الشمس، المتسلل عبر النافذة، كانت خيوط دخان لفائف التبغ تتصاعد

وتتلاشى. هي بقيت في بُرنس الحمام كما كانت، ولما أشرت إلى ذلك أجابت وهي تبتسم :

ـ أنا لا أنتظر أحدًا، وليس هناك من أرتدي الثياب من أجله. أما فيما يتعلق بك فيبدو لي أنك تفضلني حتى من دون بُرنس الحمام، ولا يصعب تخمين ذلك عمومًا .

ثم قالت إذ رأتني أقوم بحركة لكي أنهض عن الكرسي :

ـ لا، انتظر، انتظر، أنا هنا، لن أذهب إلى أي مكان، لا رغبة لديَّ في مفارقتك، لكن بودي التحدث إليك. أخبرني: كيف عشت حتى الآن، من أحببت وكيف كنت سعيدًا؟

قلت :

ـ لا أدري من أين أبدأ. هذا معقد وطويل ومتناقض. كل صباح، حين أستيقظ، أعتقد أن اليوم بالذات ستبدأ الحياة بشكل حقيقي. أشعر أنني بالكاد تجاوزت السادسة عشرة من العمر وأن ذاك الشخص، الذي يعرف هذا القدر من الأمور المأساوية والمحزنة، ذاك الذي نام في سريري أمس، غريب عني وبعيد، ولا أفهم تعبه النفسي ولا أشجانه. وكل ليلة، حين أغفو، أشعر كأنني عشت حياة مديدة جدًّا ولم أخرج منها إلا بالقرف وأعباء السنين الطويلة. وحين يحل النهار، وكلما اقترب من نهايته، يتغلغل فيَّ سم التعب النفسي هذا أعمق فأعمق. لكن هذه ليست قصة عن حياتي بالطبع. إنني أقول لك كيف كنت أشعر بنفسي

عادة حتى ذاك المساء الذي تبين فيه ـ لحسن الحظ ـ أن ليست لديكِ تذكرة لحضور المباراة .

قالت :

ـ إنك شاب نسبيًّا ومعافى تمامًا في رأيي، ومهما قلت لي لن أصدق كثيراً مسألة تعبك النفسي. لو أنك استطعت أن ترى نفسك بضع دقائق لفهمت لماذا تبدو كلماتك عن التعب غير مقنعة .

ـ لم أقل قط إنني قد أشعر بالتعب النفسي فيما يتعلق بك، وحين أراكِ ...

ـ يبدو الأمر كما لو أنه الصبح؟

ـ يبدو الأمر كما لو أنه الصبح .

قالت :

ـ لكننا نبتعد عما هو أساسي. أين ولدت؟ أين ترعرعت؟ إلى أين سافرت ولماذا؟ وما هي كنيتك؟ لأنني حتى الآن لا أعرف إلا اسمك الأول. أين درست وهل درست عمومًا؟

قلت :

ـ نعم، ربما عبثًا، لكنني درست أشياء متنوعة جدًّا ولزمن طويل .

ورحت أحدثها عن نفسي. بدا لي أن قدري الخاص لم يكن قط بهذا الوضوح بالنسبة إليَّ كما في هذا اليوم. وجدت في ذكرياتي كثيراً مما لم ألحظه من قبل، أمورًا عاطفية تقريبًا، وشعرت، لكن بإبهام، من دون أن أتوقف عن الكلام، أنني ربما، لولا «يلينا نيكولاييفنا»، لما تمكنت من إيجاد قوة ذكرياتي المنبثقة فجأة وطزاجتها التي، ربما، ما كانت حتى لتوجد لولا التفكير فيها ولولا حضور هذه المرأة في بُرنس الحمام بجانبي، بشعرها المسرَّح بنعومة ونظرة عينيها الشاردتين بعيدًا .

قلت :

ـ هل ستعذرينني إن خلت حكايتي من التعاقب الزمني الصارم؟

هزت برأسها. حكيت لها في ذلك اليوم عن أمور كثيرة: عن الحرب، عن روسيا، عن رحلاتي وطفولتي. تمثَّل أمامي أكثر الناس اختلافًا ممن عرفتهم: المعلمون، الضباط، الجنود، الموظفون، الرفاق، ومرت بلدان بأكملها أمام عينيَّ. تذكرت المناظر الطبيعية شبه الاستوائية، مربعات الأرض السمراء المستوية، الطرق البيض الضيقة وصرير العربة الخشبية المتهالكة القادم من بعيد في الجو الساكن الحار؛ العينين الكئيبتين لبقرة صغيرة ونحيلة كهيكل عظمي مشدودة مع حمار إلى محراث راح فلاح يوناني في بُرنس رمادي داكن من الجوخ وقبعة بيضاء من اللباد يحرث به الأرض؛ وأن المسافة تقاس في تركيا بالزمن ـ لا يقال إن

المسافة إلى المكان الفلاني كذا كيلومتراً وإنما كذا ساعة من المشي؛ ورياح آسيا الوسطى القارسة وخشخشة الثلج المرنة تحت الأقدام، ثم البحار، والأنهار، والبطات البرية على نهر «الدانوب»، ثم البواخر والقطارات... كل ما عبرَت من خلاله مسيرة حياتي الغامضة. ثم عدت ثانيةً إلى الحرب وإلى آلاف الجثث التي رأيتها، وفجأة تذكرت خطبة مدرِّسي للغة الروسية التي ألقاها في حفل التخرج :

ـ إنكم تبدأون الحياة، وسيكون عليكم المشاركة فيما يسمَّى «الصراع من أجل البقاء». باختصار، له ثلاثة أشكال: الصراع بهدف هزيمة الخصم، والصراع بهدف إبادته، والصراع للتوصل إلى اتفاق. إنكم في ريعان شبابكم وممتلئون بالقوة، ويجذبكم بالطبع الشكل الأول بالتحديد. لكن تذكروا دائمًا أن الشكل الأكثر إنسانية والأكثر نفعًا هو الصراع للتوصل إلى اتفاق. وإن جعلتم ذلك مبدأ لحياتكم كلها، فهذا يعني أن تلك الثقافة، التي حرصنا على نقلها إليكم، لم تذهب سدًى، وأنكم أصبحتم مواطنين حقيقيين من مواطني العالم، ويعني بالتالي أننا، نحن أيضًا، لم نعش في الدنيا عبثًا. لأنه إذا تبين أن الأمر غير ذلك فهذا يعني أننا هدرنا الوقت فحسب. لقد هرمنا ولم تعد لنا طاقة على بناء حياة جديدة، ولم يعد لنا سوى أمل واحد، هو أنتم .

قلت :

ـ أعتقد أنه كان محقًّا، لكن للأسف لم تتوفر لنا دائمًا إمكانية اختيار شكل الصراع الذي اعتبرناه الأفضل .

ـ هل تحتفظ بذكريات جيدة عن معلميك؟

كنا جالسَين على الأريكة، وأحيطها بذراعي اليمنى، وأشعر بدفء جسدها عبر بُرنسها الموبَّر .

قلت :

ـ كلا، ليس عن الجميع قطعًا .

وابتسمتُ، لأنني فكرت في أحد القساوسة، الذي علمنا «شرع الله» في الصفوف العليا، وكان شخصًا طويلاً شارد الذهن يرتدي غِفارة ليلكية من الحرير. كان يقول بصوت ضجر :

ـ هناك براهين كثيرة على وجود الله. هناك برهان قانوني، وبرهان منطقي، وبرهان فلسفي .

بعد ذلك يشرد دقيقة ثم يضيف :

ـ بل هناك برهان رياضي حتى، لكنني نسيته .

ـ أين التحقتَ بالجامعة؟ في باريس؟

ـ أجل، ولم يكن الأمر بهذه البساطة .

وأخبرتها أنني كنت بحاجة إلى الحصول على ورقة من القنصل الروسي السابق، يمكنها أن تحل محل شهادة الولادة، ولم يكن أحد يستطيع منحي إياها غيره. كان القنصل رجلًا عجوزًا عصبيًّا ضئيل الحجم، بلحية شيباء هائلة، وقد قال لي :

ـ لن أعطيك شيئًا. أنىَّ لي أن أعرف من تكون؟ قد تكون مجرمًا محترفًا، وقد تكون قاتلًا، أو قد تكون قاطع طريق. من يعرفك في باريس؟

قلت :

ـ لا أحد. لي هنا بعض الرفاق الذين درست معهم، لكنهم مثلي، ولا تعرف أيًّا منهم شخصيًّا، وليس هناك ما يمنعك من أن تعتبر كلًّا منهم مجرمًا محترفًا وقاتلًا، بل حتى شريكي في الجريمة فوق ذلك .

ـ لماذا أنت بحاجة إلى هذه الورقة؟

ـ أريد الالتحاق بالجامعة .

ـ أنت؟ بالجامعة؟

ـ أجل، هذا إن أعطيتني هذه الورقة .

ـ من أجل ذلك، يا أخ، يجب أن تكون أنهيت التعليم الثانوي .

ـ لديَّ شهادة الدراسة الثانوية .

ـ ويجب أن تعرف اللغة الفرنسية .

ـ أعرفها .

ـ وأين استطعت تعلمها؟

ـ في الديار، في روسيا .

قال في ريبة :

ـ الله أعلم من تكون. لعلك لست قاطع طريق، فأنا لا أؤكد ذلك بصورة قطعية، إذ ليست لديَّ أدلة واقعية على ذلك. أرِني شهادتك الثانوية .

وبعد أن تفحصها سأل فجأة :

ـ لماذا علاماتك في الجبر وعلم حساب المثلثات متوسطة؟ هه؟

ـ لا ميل لديَّ إلى ما يسمَّى العلوم الدقيقة .

ـ حسنًا، سأعطيك الورقة. لكن انتبه، على مسؤوليتك .

قلت :

ـ حسنًا، أعدك ألا أشير إليك إذا ما اعتُقلت وأودعت السجن .

ضحكت إذ تذكرت هذا العجوز، وهي شاركتني الضحك، وشعرت بجلد يدي كله كيف ارتعش جسمها. بعد ذلك نهضت، ونظرت إليَّ، بعتب كما بدا لي، وجذبت الستائر فأعتمت الغرفة، وفي العتمة الحالَّة لم يكن يبلغني إلا صوت الموسيقى من الشقة العلوية، حيث كان أحدهم يعزف على البيانو، بوضوح وبطء، وكان هناك انطباع أن قطرات صوتية ضخمة تتساقط، الواحدة تلو الأخرى، على زجاج سائل .

*

لم أستطع ألا ألحظ أن الصفة المميزة الرئيسة لعلاقتي بها كانت، فيما بدا، عدم وجود لحظة واحدة لم أشعر خلالها بشعور حاد مستمر: إن لم يكن الرغبة في قربها فرقَّتها، وإن لم يكن رقتها فسلسلة متعاقبة كاملة من المشاعر الأخرى أو الحالات النفسية التي لم أكن أعرف أي كلمات للتعريف بها ولا أي إمكانية لإيجاد هذه الكلمات. على أي حال، كنت مدينًا لوجودها بانبثاق العالم الذي لم أعرفه حتى الآن. لم أتخيل ماذا يعني القرب الجسدي للمرأة ـ كان أمرًا مستغربًا أن أعتقد أن في مقدوري مقارنة ذلك بمغامراتي الغرامية السابقة. كنت أعلم أن كل قصة حب، في الحقيقة، فريدة من نوعها، لكن هذا كان تأكيدًا مبسطًا وتقريبيًّا جدًّا، إذ مهما بلغ حجم الانتباه في هذا الشأن يمكن دائمًا

إيجاد تشابه، والتفرد يكمن في بعض التباينات العَرَضية في بعض التدرجات العَرَضية. الأمر كان مختلفًا هذه المرة ولا يشبه ما سبق، وفي خبرتي النفسية كلها لم أجد شيئًا قد يذكرني بحالتي الراهنة. شعرت أنني بعد الجهد المدمِّر لهذا الحب لن تبقى لديَّ أي طاقة لأي شعور آخر، وأنني، ربما، لن أستطيع مقارنة أي شيء بهذه الذكرى التي لا تُحتمل. أينما كنت ومهما فعلت كان يكفي أن أستغرق في التفكير حتى يظهر أمامي وجهها بعينيها اللتين ترنوان بعيدًا، وابتسامتها التي فيها وقاحة ساذجة، كما لو كانت تقف عارية تمامًا. إضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من شدة انجذابي الجسدي كله إليها، لم يكن هذا يشبه الهيام الأشد عصفًا، لأنه، كما بدا لي، كان يمر فيه دائمًا تيار الطهارة الجليدي ونزاهة مدهشة ما ليست من طبعي. لم أكن أعلم أنني قادر على الإحساس بأحاسيس كهذه؛ لكنني أعتقد أنها كانت ممكنة فيما يتعلق بها فقط، وفي هذا كان يكمن تفردها الحقيقي وروعتها بالنسبة إليَّ .

كما الحال دائمًا في حياتي، كل مرة يظهر فيها أمامي شيء جديد، أعجز عن معرفة ما الذي استدعاه بالتحديد من العدم. فكرت في ما الذي بالتحديد يخلق جاذبيتها التي لا فكاك منها بالنسبة إليَّ، لكني لم أجد جوابًا. عرفت نساء أجمل منها، وسمعت أصواتًا أكثر رخامة من صوتها؛ كان يمكن، فيما بدا، أن يثير لديَّ وجهها الجامد وعيناها الهادئتان المتعاليتان انطباعًا مزعجًا. لم تكن تتمتع تقريبًا بذاك الدفء الروحي الذي كنت أقدره عاليًا، وكانت تخلو من اللطف تقريبًا، أو الأصح أنه كان يظهر نادرًا جدًّا، ودائمًا كأنما رغمًا عنها. ولم يكن فيها

أي «فتنة»، هذا المفهوم لم يَلِق بها على الإطلاق. ومع ذلك هي بالتحديد كانت فريدة ورائعةً في تصوري، ولم يكن لشيء أن يغير ذلك .

لم يكن في الإمكان اعتبارها شخصًا محتجبًا؛ لكن كان لا بد من التعارف المديد أو القرب النفسي الملاصق لمعرفة كيف مرت حياتها حتى الآن، ماذا تحب وماذا لا تحب، ما الذي يثير اهتمامها، ما الذي يبدو لها قيمًا في الناس الذين تحتك بهم. لم أسمع منها لوقت طويل جدًّا أي آراء يمكن أن تكون خاصة بها شخصيًّا، على الرغم من أنني تحدثت إليها عن أشد المواضيع اختلافًا؛ فقد كانت عادةً تصغي بصمت أو تجيب بإيجاز. خلال أسابيع كثيرة بالكاد عرفت عنها أكثر بقليل مما عرفت في الأيام الأولى، مع أنها لم تكن لديها أي أسباب كي تخفي أي شيء، فقد كان هذا ببساطة نتيجة لتحفظها الطبيعي، الذي لم يكن له إلا أن يبدو لي غريبًا. عندما كنت أسألها عن شيء، ولم تكن تجيب، الأمر الذي كان يدهشني باستمرار، كانت تعقِّب: «أليس الأمر سيان لديك؟»، أو: «أي أهمية لذلك؟». وكان يهمني كل ما يتعلق بها، وكنت أريد معرفة ما جرى لها قبل لقائنا .

كانت تتميز بتروٍّ نفسي فريد من نوعه، لا يناسب سرعة حركتها ودقتها عمومًا، ومشيتها السريعة، وردود أفعالها الجسدية الآنية والدقيقة. فقط فيما كان يعتبر اتحادًا غامضًا بين ما هو نفسي وما هو جسدي، في الحب مثلًا، فقط في هذا الاتحاد كان يُخرَق تناغم جسدها الذي لا عيب فيه، وفي عدم التوافق العَرَضي هذا بالنسبة إليها كان هناك دائمًا

شيء مؤلم تقريبًا. انطباع عدم التناغم الغريب هذا، التشريحي تقريبًا، الذي لاحظته فيها مساء لقائنا الأول، وبالتحديد اقتران جبينها العالي المرسوم بخطوط واضحة جدًّا بهذه الابتسامة النهمة، لم يكن عَرَضيًّا. كان فيها خلل مؤكد بين حياة جسدها وحركة حياتها النفسية البطيئة والمتأخرة، التي تعقب حياتها الجسدية المرنة. لو كان في إمكانها وضع هذا جانبًا، ونسيانه، لكانت سعيدة تمامًا. حبها كان يتطلب جهدًا خلاقًا متواصلاً. لم تكن تفعل شيئًا قط لإثارة هذا الانطباع أو ذاك؛ ولم تكن تفكر في تأثير الكلمات التي تفوه بها. كانت قائمة بذاتها، أحاسيسها تجاه الآخرين كانت آلية أو نتاج انجذاب جسدي، وكانت حقيقية مثل الرغبة في النوم أو الأكل، أو مشاعر نفسية، شبيهة بالمشاعر النفسية لمعظم الناس، مع فارق أنها لم تكن تتصرف قط عكس رغبتها. لم يكن لرغبات الآخر أي دور إلا عندما، أو ما دامت، توافق رغبتها الخاصة. أذهلني منذ الأيام الأولى تقريبًا استخفافها النفسي، لامبالاتها بما يعتقده محدثها عنها. لكنها كانت تحب الأحاسيس الخطيرة والقوية حبًّا باردًا وعنيدًا .

هكذا كانت طبيعتها، وأعتقد أن تغييرها كان بالغ الصعوبة. ومع ذلك، بمرور الوقت بدأت ألحظ فيها بعض مظاهر الدفء البشري، كأنما خفَّت برودتها بعض الشيء. استفسرت منها مطولاً عن كل شيء، وكانت نادرًا ما تجيبني وفي شيء من الإيجاز. أخبرتني أنها ترعرعت في إقليم ناءٍ في سيبيريا، حيث عاشت حتى بلوغها الخامسة عشرة. أول مدينة شاهدتها كانت «مورمانسك». لا إخوة لها ولا أخوات، وقضى والداها في البحر: أثناء سفرهما من روسيا إلى السويد انفجر

لغم بحري عائم بباخرتهما. كانت في السابعة عشرة آنذاك وتعيش في «مورمانسك». سرعان ما تزوجت بعد ذلك مهندسًا أمريكيًّا، هو نفسه الذي تلقت برقية بموته المفاجئ بينما كانت في لندن، قبل سنة. أوضحت لي أنها أعجبت به آنذاك لأنه كانت لديه خصلة شعر شيباء، وأيضًا لأنه كان متزلجًا بارعًا على الثلج وعلى الجليد وكان حديثه عن أمريكا ممتعًا جدًّا. غادرت برفقته روسيا؛ وقد حدث ذلك تقريبًا في الوقت الذي كنت فيه تائهًا في سهوب الجنوب الملتهبة بعشبها المحترق، تحت الشمس العالية، في الطرف الآخر من هذه البلاد مترامية الأطراف، أثناء جنون الحرب الأهلية المهلك. أخبرتني عن إبحارها حول العالم، وكيف عبرت الباخرةُ العابرة للمحيط الأطلسي، التي كانت على متنها، مضيقَ «البوسفور» ليلاً، ثم بحري «مرمرة» و«إيجة»، وكم كان الطقس حارًّا، وكيف رقصت «الفوكستروت». تذكرتُ تلك الليالي وقيظها المظلم، وكيف جلستُ ساعات على الشاطئ المرتفع لمضيق «الدردنيل» ورحت أنظر من عمق الظلام إلى أضواء هذه البواخر الضخمة العابرة على مقربة مني، بحيث كنت أسمع موسيقى فرقها الموسيقية، وأتابع صفوف كُوَّاتها المستديرة المضاءة المبتعدة ببطء، التي كانت، كلما ابتعدت الباخرة أكثر، تنسكب في بقعة مضيئة واحدة، متلألئة في البداية، ثم باهتة الإضاءة، وضبابية في النهاية. أعتقد أنني ربما رأيت باخرتها وتابعتها بنظري بذلك التوتر النهم الأعمى الذي كنت فيه طوال تلك السنوات الأولى لوجودي خارَج البلاد .

لقد عاشت لسنوات كثيرة حياة ممتعة، مليئة بالأحداث غير المتوقعة، والرحلات، واللقاءات، وبعض المغامرات الغرامية «التي لا مفر منها»

حسب قولها. كانت في النمسا وسويسرا وإيطاليا وفرنسا وأمريكا، حيث أمضت في كل بلد من هذه البلدان وقتًا طويلاً كفاية. قدِمت إلى إنجلترا للمرة الأولى قبل عامين ونصف العام .

قالت :

ـ بعد ذلك كل شيء كان سهلاً .

ـ هل «سهلاً» يعني باريس، وشارع «أوكتاف فوييه»، ومباراة «جونسون» و«دوبوا» وهلمَّ جرًّا؟ بالمناسبة، علامَ كنت تُعولين إذ لم تكن لديك تذكرة؟ على تجار التذاكر؟

ـ على تجار التذاكر أو على المصادفة. لم أكن مخطئة، كما ترى .

ـ هل فاقت نتيجة المباراة توقعاتك؟

ـ في بعض الجوانب، نعم .

كلما عرفتها أكثر، اعتدت أكثر الانقسام غير الطبيعي بين حياتها النفسية وحياتها الجسدية، الذي كان من صفاتها البارزة. ربما هذا الانقسام كان قائمًا فيها دائمًا، لكنه كان الآن مَرَضيًّا، وخطرَت لي أكثر من مرة فكرة أن الطبيعة الراهنة لحياتها لا بد أنها نتاج صدمة ما لا أعرف عنها شيئًا، وتتجنب هي بدورها تذكُّرها. كانت الحياة معها تشتمل على قصتين غراميتين مختلفتين اختلافًا شديدًا: القرب الحسي، الذي كان كل شيء

فيه طبيعيًّا تقريبًا بشكل عام، والقرب النفسي، الأكثر صعوبة إلى أقصى حد، والأشد بطئًا، والذي قد لا يحدث على الإطلاق. الرأي الأول حول ما يحدث ـ لكل شخص يصبح عشيقها ـ يكون خاطئًا حتمًا؛ وهذه الأخطاء كانت فوق ذلك حتمية لكونها طبيعية تمامًا. تصورت أكثر من مرة تعاقبها. الخطأ الأول يتمثل في تصوُّر هذا العشيق أن تطور الأحداث على هذا النحو أو ذاك يتوقف عليه. الحقيقة أن الخيار كان دومًا خيارها هي، وليس الخيار فقط بل حتى الحركة الأولى التي يصعب التقاطها، والتي تحدد بدء العلاقة الغرامية، وتحدد غالبًا كل ما سيحدث لاحقًا. لكن ميزتها هذه لم تكن أمرًا استثنائيًّا بالطبع؛ ففي كثير من الحالات، كما عرفت دائمًا، يتوقف بدء القصة الغرامية وانتهاؤها على المرأة بالذات. الخطأ الثاني يكمن في إمكانية اعتبار ذلك أمرًا نهائيًّا. في الواقع هذا لم يكن يعني شيئًا، أو شيئًا تقريبًا، وقد يتوقف في أي لحظة، من دون أي توضيح وأي إمكانية للاستئناف. الخطأ الثالث، والأهم، هو أن القصة الغرامية الحقيقية، التي ـ إن حكمنا عليها بالمؤشرات الخارجية ـ أصبحت منذ وقت طويل حقيقة مفروغًا منها، لا تبدأ إلا بعد وقت طويل وفي حال مصادفة نادرة ومحظوظة فقط. بحثت طويلاً عن تشبيه يمكنه وصف ذلك، لكنني مع ذلك لم أعثر عليه: قد يكون هذا شبيهًا، على الأرجح، بملامسة شفتين باردتين تصبحان أدفأ شيئًا فشيئًا وبعد ذلك فقط تستعيدان روعتهما الحارة المفقودة ـ أو لا تصبحان دافئتين على الإطلاق وتتركان ذكرى الاستياء الجليدي القارس والتأسف العبثي حول ما كان يمكن أن يحدث ولم يحدث. لكن الأمر الأكثر ثباتًا فيما يتعلق بها كان التوتر غير المدرَك والمحتوم لكل القوى النفسية التي من دونها لا يمكن أن يتقرب منها

المرء إلا بالمصادفة وبصورة عَرَضية. هذا لم يكن متوقفًا قط على متطلباتها المفرطة، وإنما كان يحدث من تلقاء ذاته، بل حتى كأنما رغمًا عن رغبتها. في كل الأحوال، هكذا كان الأمر، ويبدو أنه لم يكن قادرًا على أن يكون غير ذلك. ومن اعترافاتها القليلة لم يكن صعبًا التوصل إلى استنتاج أن كل من عرفها عن قرب كان هذا رأيه ربما، بهذه الدرجة من الصحة أو تلك .

حين تذكرت بعد ذلك بوقت طويل لقائي إياها، وكيف بدأ كل شيء، كان أسهل عليَّ استرجاع هذا كله في الذاكرة، عبر إغماض عينيَّ واستبعاد، بشكل مقصود ومتعمد، مضمون حديثنا الأول ذاك في المقهى، وتوادعنا تحت المطر، وكل ما انحبك في قصة مترابطة بشكل عام. شعرت بوضوح، أكثر من أي مرة أخرى في حياتي، أن هذا كله أفضى إلى حركة عمياء ومظلمة، وإلى توالي الانطباعات البصرية والسمعية، التي تطور معها في الوقت نفسه وبلا رادع انجذابٌ عضلي غير واعٍ. جسم «جونسون»، «دوبوا» المتهاوي، ملامسة أصابعي يدها حين ساعدتها على ركوب السيارة، بشكل عام هذا اللحن الأخرس للجلد والعضلات، هذه الدفعة العَرَضية لجسدها، التي ربما لم تلحق أن تعيها حتى ـ هذا بالذات كان الأهم وهو الذي حدَّد ما حدث لاحقًا. ماذا عرفت عني في ذلك المساء الضبابي من فبراير؟ ولماذا بعد ذلك انتظرت اتصالي الهاتفي أسبوعًا؟ عندما ابتسمَت لي أول مرة تلك الابتسامة النهمة، غير المتوقعة، عرفتُ أنها ستكون لي، وهي عرفت ذلك قبلي. وسبق ذلك، بالطبع، تهاوي عالم الأشياء المجردة ذاك، الذي كان يتحاشى أي فهم بدائي أو جسدي محض، وحيث فلسفة

حياة فريدة من نوعها، مبنية على الرفض المسبق لأولوية اللحظات المادية، كانت أهم بما لا يقاس من أي انفعالات حسية ـ هذا العالم الذي تلاشى فورًا ذاك المساء في هذه الحركة العضلية الساكتة. حين أخبرت «يلينا نيكولاييفنا» بذلك ذات مرة أجابت باسمة :

ـ ربما لأننا استطعنا العيش من دون الفلسفة، بينما لولا الأمر الآخر، الذي ذكرته، لتعرضت البشرية لخطر الفناء بطريقة أو بأخرى .

كثيراً ما شعرت بالارتباك في حضورها، خصوصًا في الفترة الأولى. سرعان ما أيقنتُ أن ردود أفعالها لا تشبه ردود أفعال معظم النساء الأخريات. فمن أجل إضحاكها، على سبيل المثال، كانت تلزم أمورٌ أخرى غير التي تُضحك الجميع؛ ولإثارة أي شعور لديها كان ينبغي إيجاد طريقة خاصة، مختلفة عن الطرق المألوفة؛ ومن أجل إعادة التشكيل المعقدة لعالم المشاعر الذي جرى فيه تقاربي معها، احتجت إلى كثير من الوقت وكثير من الجهد. لكنني كنت أعيش، أخيراً، حياة حقيقية، لا يتألف نصفها ـ كما كانت الحال دائمًا حتى ذلك الحين ـ من ذكريات وحسرات وهواجس وانتظار منهك .

كثيراً ما كنا نتنزه لوقت طويل في باريس؛ فقد كانت معرفتها بها سطحية وضعيفة. أَريتُها المدينة الحقيقية، لا تلك التي يُكتب عنها في المجلات المصورة ولا تتغير في مخيلة الأجانب الذين يَقدمون إلى هنا مرة في السنة لأسبوعين. أَريتُها الأحياء العمالية الفقيرة، وشوارع الضواحي البعيدة عن مركز المدينة، والأبنية التي في أطرافها، وبعض

الضفاف المرصوفة، و«بولفار سيباستوبول» في الساعة الرابعة صباحًا. أذكر بأي دهشة نظرت إلى شارع «سان لوي آن ليل» وبالفعل كان يصعب تصوُّر أن في تلك المدينة نفسها، حيث الجادات الرائعة المتفرعة من ساحة «ليتوال»، قد يكون هناك هذا الممر الضيق والمظلم بين صفين لامتناهيين من المنازل القديمة، المتشبعة بعفونة الدهور، والتي استعصت على الحضارات كلها. كان الربيع في أواخره، وحينذاك، بعد برد الشتاء الطويل وكل مناظره الطبيعية الكئيبة، رأينا باريس أخرى من دون أن نسافر إلى أي مكان: الليالي الصافية، وهالة الشمس البعيدة الحمراء فوق «مونمارتر»، وأشجار الكستناء المتراصة في «بولفار أراجو»، الذي لسبب ما وجدنا أنفسنا فيه بضع مرات على التوالي. كنت أسير ممسكًا بخصرها، وهي تقول لي بصوت هادئ كسول، من دون أدنى إشارة إلى اعتراضها: «يا عزيزي، إنك تتصرف مثل «زعران» الشوارع تمامًا ».

أحيانًا، قبل العودة إلى المنزل، كنا نمر بمقهى ليلي أو حانة، وكانت تُدهش، أيًّا كانت المنطقة التي يحدث فيها ذلك، من أنني أعرف شخصيًّا كل النُّدُل وكل النساء الجالسات على المقاعد عند البار في انتظار الزبون التالي. كانت لا تشرب إلا المشروبات الثقيلة، وكانت لديها قدرة غير عادية على عدم السكر، وكان مردُّ ذلك، في رأيي، هو التدرب المديد وإقامتها في البلدان الأنجلوساكسونية. فقط بعد أن تشرب كمية كبيرة من الكحول تصبح غير ما هي عليه عادة، وتبدأ حتمًا بالاشتياق إلى ما لا يلزم :

ـ فلنذهب إلى سهرة راقصة، «بال موزيت» في «الباستي»، أريد أن أتفرج على قاع المدينة. فلنذهب إلى شارع «بلونديل»، إلى بيت الدعارة الشهير .

ـ هذا غير ممتع يا «لينوجكا ».

ـ وأين يجتمع اللوطيون هنا؟ ينبغي أن تعرف ذلك، وإلا أي صحفي أنت إن كنت لا تعرف؟ فلنذهب، أتوسل إليك، كم أحب اللوطيين .

ـ إن ذهبنا وجرحني أحدهم بسكين، ماذا ستفعلين عندها؟

ـ لا داعي لاستثارة هذا المزاج البطولي العبثي، لن يطعنك أحد، هذا أصلاً أدب رديء .

أحيانًا كانت تخطر لها أفكار غريبة تمامًا. أذكر عندما سألتني ذات مرة أين يمكن شراء سكاكر الكراميلا ليلاً، ولأني لم أرتَب في نواياها الحقيقية فقد أخبرتها. كنا في سيارة أجرة، فأمرت السائق بالتوجه إلى هناك، وخرجت من الدكان ويداها مملوءتان بأكياس السكاكر .

ـ ماذا ستفعلين بهذا كله؟

قالت بصوت رقيق ليس من صفاتها على الإطلاق، أدركت من خلاله أنها ثملة تمامًا، الأمر الذي لم يكن ملحوظًا ظاهريًّا حتى تلك اللحظة :

ـ حبيبي، سأقبِّلك، سأفعل كل ما تريد، لكن عليك تلبية رجاء صغير لي .

قلت وأنا أفكر بصوت مسموع :

ـ يبدو أمرًا سيئًا .

أردفت وهي تريني ظفر خنصرها :

ـ صغير بهذا القدر. لا بد أنك تعرف، بل أنا متأكدة أنك تعرف، في أي منطقة من باريس توجد فتيات صغيرات مومسات أعمارهن بين العشر سنوات والخمس عشرة سنة .

ـ كلا، لا فكرة لديَّ عن ذلك .

ـ أتريدني أن أسأل السائق؟ سيكون موقفك سيئًا .

ـ لكن ما حاجتك إلى الفتيات؟

ـ أريد أن أوزع عليهن السكاكر. أنت تدرك أن هذا سيفرحهن .

تمكنت من إقناعها بالعدول عن ذلك بصعوبة كبيرة. لكنها كانت تصر أحيانًا بحيث لم يكن يبقى أمامي إلا أن أمنعها بالقوة أو أرضخ لها؛ وهكذا ذهبنا إلى كل مكان تقريبًا رغبَت في الذهاب إليه، ولاحظتُ أن هذه الأماكن كلها لم تَعنها كثيراً في الحقيقة. إنها ببساطة كانت تطلق العنان لرغبة ما راودتها فَجأة، وما إن تصبح سهلة التحقيق حتى تفقد جزءًا كبيراً من إغوائها. كانت مستعدة للقيام بأي شيء من أجل الأحاسيس القوية. لكن لم تكن هناك أحاسيس قوية. لم يكن هناك، في إحدى المرات، إلا القوادون بقبعات رمادية فاتحة، يعاملون بخشية واحترام رجال الشرطة المناوبين عند مدخل «البال موزيت»، وفي مرة أخرى، نساء مكتنزات عاريات ذوات أجساد مترهلة وغباء شديد البهيمية في عيونهن، وفي مرة ثالثة، شبان يسيرون متهالكين تغشى وجوههم مسحة مفهومة من «السيفلس» العاطفي. كانت تقول :

ـ أنت محق، هذا ممل .

كانت تحب أن تنطلق السيارة بسرعة كبيرة. عندما طلبت مني ذات مرة أن أستأجر سيارة من دون سائق، ذهبنا إلى خارج المدينة وسلمتها المقود بسذاجة، فأخذت تقود بسرعة هائلة، ولم أكن واثقًا بعودتنا من هذه النزهة إلى المنزل لا إلى المستشفى. كانت تجيد القيادة بشكل رائع، لكنني مع ذلك، عند المنعطفات وتقاطعات الطرق، كنت كل مرة أريد إغماض عينيَّ ونسيان ما يحدث. أخيراً، بعد أن نجونا بأعجوبة من الكارثة الثالثة، قلت لها :

ـ كدنا نتعرض لثلاثة حوادث سير .

رفعت يدها اليسرى عن المقود، من دون أن تخفف السرعة، وأرتني إصبعها السبابة وأجابت :

ـ حادث واحد .

ـ لماذا؟

ـ لأننا بعد الحادث الأول لم نكن لنتابع السير، ولمَا كانت لدينا أي احتمالات أخرى .

لكنني في طريق العودة رفضت بصورة قطعية السماح لها بالقيادة، وبينما كنا نسير، قالت :

ـ لا أفهمك، إنك تقود بالسرعة نفسها، فما الذي تخشاه؟ أتعتقد أنك تقود أفضل مني؟

قلت :

ـ كلا، لست متأكدًا من ذلك، لكنني أعرف الطريق، وأعرف أيَّ التقاطعات خطيرة وأيها ليست كذلك، في حين أنك تسيرين خبط عشواء .

نظرت إليَّ بتعبير غريب في عينيها وقالت :

ـ خبط عشواء؟ أعتقد أن هذا ممتع أكثر. في كل شيء، بشكل عام .

خلال تلك الفترة تمكنت، أخيراً، من التخلص من العمل العَرَضي والممل وتلقيت تكليفًا بكتابة سلسلة مقالات عن الأدب. جاءت إليَّ «يلينا نيكولاييفنا» ذات يوم نهارًا ـ وكانت تلك زيارتها الأولى ـ من دون إخطار مسبق، ودُهشت كثيراً حين فتحت الباب على قرع الجرس غير المتوقع ورأيتها .

قالت وهي تعاين الغرفة التي أعمل فيها :

ـ مرحبًا، أردت مباغتتك، وربما في أحضان إحداهن .

وقفَت عند رفوف الكتب وراحت تتناول المجلد تلو المجلد وتعيده إلى

مكانه بسرعة. ثم حدقت إليَّ فجأة بتعبير غريب في عينيها لم يسبق لي أن رأيته قط .

ـ ما بكِ؟

ـ لا شيء، أثار اهتمامي ببساطة أحد الكتب، لطالما أردت قراءته لكني لم أعثر عليه في أي مكان .

ـ أي كتاب؟

قالت بسرعة :

ـ «الحمار الذهبي»، أيمكنني أخذه لقراءته؟

أدهشني أن يثير لديها هذا الكتاب انطباعًا كهذا، فقلت :

ـ بالطبع، لكن ليس فيه ما يثير الإعجاب .

ـ أهداني إياه زوجي في شهر العسل، فبدأت أقرأه وسقط مني في البحر. بعد ذلك سألت عنه في كل مكان، لكني لم أعثر عليه. صحيح أن ذاك كان الترجمة الإنجليزية، أما هذا فهو بالروسية. ماذا تكتب الآن؟

أَريتُها عملي، فسألتني إن كان في إمكانها مساعدتي .

ـ أجل بالطبع، لكنني أخشى أن يكون التنقيب في الكتب ونسخ الاقتباسات مملًّا لكِ .

ـ لا، على العكس، هذا يهمني .

ألحت بشدة حتى وافقت. كان عملها في نسخ الاقتباسات المحددة من قِبَلي وترجمتها، لأدرجها في المقالة كإيضاح لهذا الموقف الأدبي أو ذَاك، الذي أعالجه. وقد فعلت ذلك بمنتهى السرعة والسهولة وكأنها مارسته طوال حياتها. غير أنها عثرت على معطيات لم تلفت انتباهي، فقد كانت قوية بصورة خاصة في الأدب الإنجليزي .

سألتها :

ـ من أين لكِ هذا؟ طوال الوقت رحلات وغراميات، كما تقولين، فمتى لحقتِ أن تقَرئي هذا كله؟

ـ ما دامت لم تعقك المقالات عن السياسيين الأوغاد، وعن الناس الذين يلكم بعضهم بعضًا على الوجوه، وعن النساء المُقطَّعات قِطعًا، فلماذا قد تعيقني غرامياتي؟ الكثير من المغامرات الغرامية تجريَ بسرعة: واحد، اثنان، وينقضي الأمر .

ورفعت رأسها عن الكتاب الذي في يديها ورمقتني بعينين ساخرتين .

أخذت تأتي إليَّ كل يوم تقريبًا. حين عانقتها ذات مرة أبعدتني وقالت :

ـ سنتبادل القبل مساءً، أما الآن فينبغي العمل .

وقد حمَّلت كلامها جدية بالغة بحيث انتابني الضحك رغمًا عني. لكن لم يكن في مقدوري عدم تقدير مساعدتها؛ فقد تضاعفت سرعة عملي. كانت تجيء صباحًا أحيانًا وتوقظني، لأنني، بحكم العادة الممتدة سنوات، كنت أخلد إلى النوم متأخرًا جدًّا وأستيقظ متأخرًا. كنا في أواخر شهر مايو، وكان الطقس قد أصبح حارًّا. كنا نعمل معًا في النهار، ثم نتناول العشاء معًا في المساء، ثم نذهب إلى مكان ما، وبعد ذلك أشيعها إلى منزلها وغالبًا تقريبًا كنت أبقى عندها وأحضر حمَّامها المسائي. وبعد خروجها من حوض الحمام، مبيضة الوجه وشاحبة الشفتين، اللتين أزالت عنهما الصباغ، كنت أنزع عنها البرُنس وأضعها في الفراش وأسألها :

ـ أتلزمك الآن تهويدة؟

بعد ذلك، بعد أن أفارقها في جوف الليل، وعند خروجي إلى الشارع وتوجهي إلى البيت، تبدأ حياتي تبدو لي كأنها غير حقيقية، إذ لم أستطع قط اعتياد فكرة أن تخلو حياتي من التراجيديا في نهاية المطاف، وأنني أمارس العمل الذي يثير اهتمامي، وأن ثمة امرأة أحبها كما لم أحب أحدًا غيرها، وهي ليست مجنونة، ليست هستيرية، وليس عليَّ أن أتوقع كل لحظة من جانبها نوبة هلع مباغتة ولا نوبة غضب غير مفهومة ولا الدموع المنهمرة بغزارة وغير المجدية. كل ما كان يشكل حياتي حتى الآن ـ التحسر والسخط والعبثية الجلية لكل ما أقوم به ـ أصبح

يبدو لي بعيدًا جدًّا وغريبًا، تمامًا كما لو أنني أفكر في شيء حدث منذ زمن بعيد. وفي عداد هذه الأشياء التي اختفت والذكريات التي ضعفت كانت الذكرى المتعلقة بـ«ألكسندر ولف» وقصته «مغامرة في السهب». كان كتابه لا يزال على الرف لديَّ كما في السابق، لكنني لم أكن قد فتحته منذ زمن بعيد .

*

ذات يوم، حين دخلت الشقة ـ كان لديَّ مفتاح خاص بي لها ـ سمعت «يلينا نيكولاييفنا» تغني. توقفتُ. كانت تغني أغنية عاطفية إسبانية ما بصوت خافت. كان اللحن من تلك الألحان التي لا يمكن أن تظهر إلا في الجنوب والتي لا يستطيع المرء تصور ظهورها إلا في نور الشمس. كان هذا اللحن بطريقة لا تُدرك يشتمل في داخله على نور، كما أن ألحانًا أخرى قد تشتمل على ثلج، وبعضها الآخر يعطي إحساسًا بالليل. حين دخلتُ الغرفة ابتسمَت وقالت :

ـ المضحك هو أنني لم أدرك يومًا أنني أعرف هذه الأغنية. سمعتها قبل أربع سنوات في حفل موسيقي، ثم مرة في الحاكي، وها قد تبين فجأة أنني أتذكرها .

قلت، ردًّا على فكرتها كما بدا لي :

ـ وربما، بالفعل، كل شيء ليس محزنًا إلى هذا الحد في نهاية المطاف، وأن الأمور الإيجابية لا تكون متوهَّمة دائمًا وبصورة حتمية .

قالت دونما رابط مع بدء الحديث :

ـ إنك عمومًا فاتر وخشن، وحين لا تمزح تكون أفكارك أيضًا فاترة وخشنة. وتعيقك كثيراً قدرتك على التفكير، لأنك من دونها لكنت سعيدًا بالطبع .

كان أكثر ما يهمني هو السؤال الذي سبق أن طرحته حول ما جرى لها قبل مجيئها إلى باريس. ماذا بالتحديد؟ وما هذا الشعور الجامد منذ زمن بعيد في عينيها؟ ومن أين لها هذا البرود النفسي؟ بيد أنني كنت أعلم، بخبرتي المديدة، أن فتنة المرأة وجاذبيتها تبقيان قائمتين بالنسبة إليَّ ما بقي فيها أمر مجهول، مساحة مجهولة تمنحني إمكانية ـ أو وَهْم ـ إعادة تشكيلها مرة تلو الأخرى، عبر تصوُّرها كما أريد أن أراها، وربما ليس كما هي في الواقع. لم يكن هذا الأمر يبلغ حد أن أفضِّل الكذب أو الاختراع على الحقيقة البسيطة جدًّا، لكن المعرفة العميقة الخاصة كانت تحمل في داخلها خطرًا لا شك فيه: لم أكن أرغب في العودة إلى ذلك، كما لا يرغب المرء في العودة إلى كتاب قرأه وفهمه سابقًا. ومع ذلك، فإن الرغبة في المعرفة لطالما كانت لصيقة بالإحساس، ولا يمكن لأي حجج تغيير ذلك. خارج هذا الخطر النفسي والجلي قد تبدو الحياة لي خاملة ربما. كنت متأكدًا من أن ثمة فترة غامضة من حياة «يلينا نيكولاييفنا»، وأردت أن أعرف: عينا مَنْ وجدتا انعكاسهما الجامد في عينيها؟ برودة مَنْ تغلغلت عميقًا هكذا في جسدها؟ والأهم كيف حدث ذلك ولماذا؟

لكن بقدر ما كانت رغبتي في معرفة ذلك قوية، إلا إنني لم أكن مستعجلاً، فقد كنت آمل أن سيكون لديَّ وقت من أجل ذلك. أول مرة شعرت فيها بإمكانية أن تثق «يلينا نيكولاييفنا» بي حقًّا كانت ذات يوم، عندما كانت جالسة بجانبي على الأريكة ووضعت ذراعها على كتفي بحركة بدت غير واثقة وغير مألوفة تمامًا، وهذه الإشارة، التي ليست من طبيعتها على الإطلاق، كانت أكثر دلالة من أي كلمات. نظرتُ إلى وجهها؛ لم تكن عيناها قد تمكنتا بعد أن تحذوَا حذو جسدها، وحافظتا على تعبيرهما الهادئ. فكرت في أنها لم تعد كما كانت منذ بعض الوقت، وربما لن تكون كذلك مرة أخرى أبدًا. أحيانًا، بينما هي تخبرني ببعض الأمور التافهة عن هذه الفترة من حياتها أو تلك، كانت تقول: «عشيقي آنذاك» أو «هذا كان أحد عشاقي»، وكل مرة كنت أشعر بشعور غير مريح وأنا أسمع هذه الكلمات من شفتيها بالذات وفيما يتعلق بها بالتحديد، على الرغم من معرفتي أن الأمر لم يكن محتملاً أن يكون على غير هذا النحو، وأن ليس في إمكاني أن أحذف حسب هواي أي حدث من حياتها، وإلا كفت هي عن الوجود بالنسبة إليَّ، ذلك أنني ما كنت لألتقيها قط لو كان لديها عشيق أكثر أو أقل. فضلاً عن أنها كانت تلفظ هذه الكلمة بنبرة كأنما الحديث يتعلق بمستخدَم غير ذي أهمية ومؤقت دائمًا .

كثيراً ما لاحظت، بدهشة دائمة، أن النساء دائمًا صريحات جدًّا معي ويروين لي حياتهن بطيب خاطر. سمعت اعترافات كثيرة، أحيانًا من النوع الذي كان يجعلني أشعر بالارتباك. الأكثر إبهامًا بالنسبة إليَّ كان أن معظم محدِّثاتي لم تكنَّ تربطني بهنَّ أي علاقة في الواقع، بل مجرد

التعارف البسيط. أكثر من مرة طرحت على نفسي السؤال التالي: بمَ يمكن حقًّا تبرير هذه المصارحات العاطفية التي لم تكن لها قطعًا أي أسباب، لا داخلية ولا خارجية؟ لكن بما أن هذا لم يكن يهمني كثيراً في نهاية المطاف، لم أكن أهدر كثيراً من الوقت في مناقشته. كنت أعرف وحسب أن النساء صريحات معي، وكان هذا أكثر من كاف بالنسبة إليَّ، لأنني أحيانًا كان يصادف أن أجد نفسي في وضع غيرً مريح. «يلينا نيكولاييفنا» بهذا المعنى كانت استثناءً. صحيح أنها كانت قادرة على تكرار «عشيقي السابق» و«عشيقي آنذاك» بضع مرات بالنبرة نفسها التي تقول بها «غاسلة ملابسي» و«طباختي» لكن هذا كان كل شيء. نادرًا جدًّا ما كانت لديها لحظات قصيرة من الصراحة، وحينئذ كانت تروي لي شيئًا ما وكانت قاسية على غير المتوقع فيما يتعلق بي، عبر بساطة التعابير التي تستخدمها، أو ذكر بعض التفاصيل، الواقعية جدًّا، فكنت أشعر بالأسى لأجلها. لكن ما لم تتحدث عنه حتى الآن قط، ولا في أي ظروف، كان حياتها الداخلية .

ذات مرة كنت جالسًا عندها في المساء، وكان ضوء المصابيح المدورة الباهت يصل الغرفة من الشارع عبر الستائر نصف المفتوحة، وكان المصباح الجداري أعلى الأريكة مضاءً، والسماء صافية وكثيرة النجوم .

قلت لها :

ـ إنني أشعر بالأسف عليك أحيانًا. أشعر أنك تعرضت للخداع مرارًا، وأنك في كل مرة قلتِ ما كَان يستحسن السكَوت عنه، كنتِ تندمين

فيما بعد. أخشى أن بين عشاقك كان ثمة أناس لا يجوز اعتبارهم «جنتلمانات»، وها أنت الآن ينطبق عليكِ المثل القائل: «اللي يتلسع من الشوربة ينفخ في الَزبادي ».

ثم استدرتُ نحوها؛ كانت صامتة وفي وجهها تعبير الشرود والنأي .

واصلت قائلاً :

ـ وربما لديكِ شيء من قبيل التبكيت النفسي. لكن من هو الطبيب الذي لديه منَ القسوة ما يكفي للقيام بذلك؟

قالت بصوتها الهادئ الخامل :

ـ قبل سنتين في لندن تعرفت إلى شخص .

جعلتني نبرة ما في صوتها، بالكاد يمكن التقاطها، أتنبه فورًا. بقيت واقفًا عند النافذة. بدا لي أنني لو توجهت نحوها، أو جلست على الكرسي الذي بجوار الأريكة، أو خطوت عمومًا بضع خطوات في الغرفة، فإن أول حركة أقوم بها سوف تعكر مزاجها ولن أعرف بالتالي ما أرادت أن تخبرني إياه. بل حتى إنني لم أدر رأسي، وفي هذا الجمود المتوتر رحت أستمع إلى قصتها. أخذت تتكلم هذه المرة بصراحة متناهية وغير مُحصنة. حدث ما كنت أنتظره بعناد ومنذ زمن طويل .

بدأ الأمر في أمسية عند أصدقاء لها. صاحب البيت كان في قرابة

الخمسين من العمر، وكانت زوجته تصغره بعشرين سنة .

أردت أن أسأل عن مدى أهمية تفاصيل أعمار أصحاب البيت لما سيلي، لكنني لُذت بالصمت .

بعد عشاء دسم أُلقيت كلمات مقتضبة. أحد الضيوف غنَّى بصورة لا بأس بها، وآخر قرأ أشعارًا، ورقصت إحدى السيدات رقصًا جميلاً. آخر المؤدين كان رجلاً طويل القامة، أخذ يعزف على البيانو شيئًا من ألحان «سكريابين». أثرت هذه الموسيقى في «يلينا نيكولاييفنا» تأثيراً شديدًا جدًّا، ارتبط لاشعوريًّا بالعازف. عندما دعاها إلى الرقص، في منتصف السهرة، توجب عليها أن تبذل جهدًا حتى لا ترفض دعوته. لكنه كان راقصًا بارعًا، وتبين أنه، حسب قولها، أكثر المحدِّثين تشويقًا وظرافة ممن التقتهم في حياتها. كان وجهه شاحبًا وعيناه شديدتي اللمعان، وكان ما قاله ذكيًّا وصحيحًا ويوافق دائمًا إيقاع الموسيقى التي كانا يرقصان عليها. هذا الشخص كان صديق صاحب البيت وعشيق زوجته: لاحظت «يلينا نيكولاييفنا» النظرة الثابتة لعيني الزوجة الزرقاوين اللتين لم تفارقا شريكها طوال الوقت .

تحدثا عن أمريكا وهوليوود وإيطاليا وباريس، وكان يعرفها كلها جيدًا جدًّا كأنما عاش في كلٍّ منها سنوات بكاملها. كان قد قرأ كل الكتب الصادرة في السنوات الأخيرة، وكان تبحُّره في هذا الخصوص استثنائيًّا؛ فقد كان يعرف بالموسيقى جيدًا، لكنه لم يكن يفهم شيئًا في الرسم. حين انتهت السهرة وتوجه نحوها كي يودعها لاحظت للمرة الأولى

بدهشة أنه ليس شابًّا جدًّا؛ خلال بضع اللحظات هذه حدث في وجهه ما بدا تغيراً غريبًا. لكنها لم تتذكر هذا الانطباع إلا لاحقًا .

مر أسبوع، ثم التقيا ـ هو اتصل بها بالهاتف ـ في مطعم، حيث تناولا العشاء. كان مرة أخرى كما كان في أمسية تعارفهما الأول. كانت فرقة من الغجر المجريين تعزف ـ بأصوات الكمنجات الباكية ـ ألحانًا باستطالات ثابتة ومغوية إلى حد الإنهاك، وتُقطع فجأة وفي إثرها يبدأ إيقاع سريع، شبيه بصورة صوتية لعدوِ الفَرس في سهل شاسع متخيَّل .

أخذ الرجل يصغي بانتباه ثم قال :

ـ هناك بلد واحد فقط في أوروبا يمكن فيه إدراك ما هي الرحابة حقًّا، ألا وهو روسيا. لكن لعلك لا تحبين الجغرافيا، لا سيما في مطعم؟ ألا تشعرين أن كل ما يحدث هو، في الحقيقة، عجائبي؟

ـ كثيراً ما سمعت هذه العبارة بالذات، بحيث فقدَت بالنسبة إليَّ قدرتها على الإقناع .

ـ ومع هذا فإن الأمر كذلك تمامًا، ومحدثوكِ المساكين كانوا محقين .

ـ ليس هناك ما هو أكثر إضجارًا أحيانًا من كون المرء محقًّا .

ـ بالطبع. لكن لو أنك تجشمت عناء متابعة تعاقب الأحداث في حياة أي إنسان فلسوف توافقين علىَ أن هذا عجائبي دائمًا تقريبًا .

ـ كثيراً جدًّا ما يكون هذا غير ممتع ببساطة. وفي حالات كثيرة يكون غير مفهوم لماذا، حقًّا، عاش هذا الإنسان أو ذاك بلا جدوى ولا معنًى على هذا النحو .

قال :

ـ أعرف سيرة حياة أحدهم، شاب يهودي فقير من بولندا، وُلد في أسرة بقَّال، لكنه كان يحلم أن يصبح خياطًا. شارك في الحرب، وكان في الأَسر، قاتل، وأُصيب، وبعد محن كثيرة وصل إلى إنجلترا، حيث تمكن من أن يصبح خياطًا، كما كان يأمل دومًا. كان يحلم بذلك في الخنادق الرطبة، على أصوات القذائف، في المستشفى، وفي الأسر. وفور تلقيه أول طلبية أُصيب بالتهاب الرئة ومات بعد عشرة أيام. انظري، يا له من تعاقب استثنائي، يا لها من نهاية رائعة !

ـ هل ترى في هذا تجليًا لمعنى علوي ما؟

أصبح وجهه جادًّا، وحدقت عيناه اللامعتان فيها بتركيز بالغ .

ـ ألا يبدو هذا لك جليًّا؟ لقد كان هروبًا إلى الموت. كان يحلم أن يصبح خياطًا، كمَا يحلم آخرون بالمجد والثروة. حافظ عليه القدر، فيما يبدو، بالذات لكي يتمكن من بلوغ هدفه. لم يُقتل في الجبهة، ولم يهلك في الأسر، ولم يمت من الغنغرينا أو التسمم الدموي في المستشفى. وأخيراً، حين تحقق حلمه، تبين أن تحققه يحمل معه الموت، الذي كان يندفع نحوه بإصرار طوال الوقت. كل حياة تغدو

واضحة ـ أقصد مسارها، خصوصيتها ـ في اللحظات الأخيرة فقط. هل تعرفين الأسطورة الفارسية عن البستاني والموت؟

ـ لا .

ـ جاء بستانيٌّ الشاه إليه ذات يوم، وهو شديد الاضطراب، وقال له: «أعطني بسرعة أسرَع جواد لديك، سأرحل بعيدًا قدر المستطاع، إلى أصفهان، فقد رأيت موتي توًّا، بينما كنت أعمل في الحديقة». أعطاه الشاه جوادًا، وعدَا البستاني رامحًا إلى أصفهان. خرج الشاه إلى الحديقة فوجد الموت واقفًا هناك، فقال له: «لِمَ أفزعت بستانيَّ؟ لِمَ ظهرت أمامه؟»، أجاب الموتُ الشاه: «لم أرد أن أفعل ذلك. دُهشتُ لرؤية بستانيك هنا. مدوَّن في كتابي أنني سألقاه اليوم ليلاً بعيدًا من هنا، في أصفهان ».

ثم أضاف :

ـ أعرف حالات كثيرة مغزى هذا المسار فيها واضح للغاية. لقد أخبرتك عن الخياط. إليك مثالاً آخر: ضابط روسي شارك في الحرب العالمية الأولى ثم في الحَرب الأهلية في روسيا. أمضى في المواقع الأمامية ست سنوات. قُتل رفاقه جميعًا تقريبًا. جُرح مرات عدة، وذات مرة زحف تحت إطلاق النيران أربعة كيلومترات وفي جسمه رصاصتان. نجا من الموت مرات كثيرة بأعجوبة ببساطة، لكنه بقي على قيد الحياة. ثم انتهت الحرب، وسافر إلى اليونان الآمنة، حيث لا شيء، فيما بدا،

يهدد حياته. بعد وصوله بيوم أخذ يمشي ليلاً في طرف بلدة آسيوية صغيرة، فسقط في بئر وغرق. فكِّري، هل كان يجدر به الزحف تحت إطلاق النيران، وفقدان الوعي من الوهن، بهذا الجهد المخيف؟ هل كان يجدر به هدر كل تلك الشجاعة والبطولة التي لا تُقهر، لكي يغرق ذات ليلة في بئر بعد أن باتت كل الأخطار خلفه؟

ـ وهل تعتقد أن معنى كل ما هو موجود ينحصر في هذه الجبرية القاتلة؟

ـ هذه ليست جبرية، بل وجهة الحياة، إنها معنى كل حركة. الأصح ليس معناها حتى، بل مغزاها .

ـ يبدو أنك تكرس كثيراً من الوقت للبحث في هذه المسألة. ربما اتفق لك أن فكرت إلى أي درجة حياتك أنت ...

ازداد شحوبه فجأة. كانت الكمنجات تعزف بحدة استثنائية .

قال :

ـ قبل سنوات عديدة التقيت موتي، رأيته بالوضوح نفسه الذي رآه به البستاني الفارسي، لكنه تجاوزني بفضل مصادفة غير عادية: «إل ما راتيه»، «لقد أخطأني». لا أعرف كيف أعبر عن ذلك بطريقة أخرى. كنت فتيًّا جدًّا، وكنت أطير نحوه بتهور، لكن هذه المصادفة التي ذكرتها أنقذتني. والآن أتوجه نحوه ببطء، والحقيقة أنني يجب أن أكون

ممتنًّا له لكونه، فيما يبدو، أخطأ الصفحة، فقد منحني ذلك سعادة النظر في عينيكِ وسرد هذه المقتطفات شبه الفلسفية لكِ .

قالت «يلينا نيكولاييفنا »:

ـ بدا لي آنذاك أن كل شيء ضدي: الأمسية، والموسيقى، وهذا الوجه بعينيه اللامعتين. لكن كانت لا تزال لديَّ القوة لمقاومة ذلك، بيد أنها لم تكفني وقتًا طويلاً .

صارت تلتقيه مرة في الأسبوع تقريبًا. بعد لقائهما الأول في المطعم غيَّر لبعض الوقت «أسلوبه الفلسفي»، حسب تعبيرها، الذي كان عليه آنذاك، وراح يتكلم عن سباقات الخيل والأفلام والكتب، وكلما زادت معرفة به اتضح لها أكثر أنه أذكى من كل الذين اتفق لها أن التقتهم. لكن ذلك كله ـ على الرغم من الأشياء الذكية والحقيقية، وعلى الرغم من أن عالمًا بأكمله، لم تكن تعرفه، انفتح أمامها ـ كان مشوبًا بمسحة من اليأس البارد والهادئ. لم تتوقف قط عن مقاومته داخليًّا. لم تكن قادرة على نقض استدلالاته العقلية بشيء، فقد كان النقاش غير متكافئ إلى حد بعيد، وكانت هي مهزومة فيه مسبقًا. لكن كيانها كله كان يقاوم ذلك، فقد كانت تعلم أن هذا غير صائب، وإن كان صائبًا فيجب ـ ويجدر ـ بذل جهد خارق لنسيان ذلك حالاً وعدم العودة إليه .

قال ذات مرة :

ـ إن أي علاقة حب إنما هي محاولة من المرء لإيقاف قدره. إنها وهمٌ

ساذج بخلود قصير الأجل. ومع ذلك، لعل هذا أفضل ما يقدَّر لنا معرفته. لكن في هذا أيضًا، بالطبع، تسهل رؤية عمل الموت البطيء. «الرغبة تحرقنا والقدرة تُفنينا»: تجدين هذه العبارة في رواية «بلزاك» «جلد الحَبَب ».

طرحت على نفسها السؤال التالي: «ما الذي منح هذا الإنسان القدرة على الحياة؟ فما كان يؤمن به الآخرون لا وجود له بالنسبة إليه؛ حتى أفضل الأشياء وأروعها كانت تفقد فتنتها ما إن يلمسها». لكن جاذبيته كانت لا تُقهر. كانت «يلينا نيكولاييفنا» تعلم أن لا مفر من ذلك، وحين أصبحت عشيقته شعرت كأنها تتذكر شيئًا حدث منذ زمن بعيد. وأيضًا بعد بعض الوقت أدركت كيف استطاع هذا الإنسان البقاء على قيد الحياة وما الذي كان يسنده في هذه الرحلة الطويلة للقاء الموت: كان مدمنًا على المورفين. سألته ذات مرة كيف يمكن له، بذكائه ومؤهلاته، هو الذي كان بلا شك أسمى من كل الذين عرفتهم، أن يصل إلى هذا الوضع الميؤوس منه .

أجاب :

ـ هذا لأني سمحت لموتي أن يتخطَّاني .

كما أنَّ حادثة مأساوية أخرى عكَّرت قصة غرامهما. عشيقته السابقة، صاحبة البيت الذي سمعت فيه «يلينا نيكولاييفنا» موسيقى «سكريابين» أول مرة، لم تستطع التصالح مع الوضع الجديد، فكانت تكتب رسائل

تهديد، وتتوعد بفضحهما، وتحرس مدخل منزله ساعات. إنها امرأة سخيفة عاشت حياتها ـ حسب تعبيره ـ وهي لا تفكر إلا في تفاهة ما، ثم أحبته، وملأ هذا حياتها كلها. لكن هل أحبها هو؟ كلا، بل كان هذا سوء فهم امتد طويلاً، لكنه انتهى نهاية مأساوية: لقد سمَّمت نفسها تاركة لزوجها رسالة مفصلة روت له فيها قصة مغامرتها الغرامية، موضحة أنها تنهي حياتها لأن هذا الشخص لم يعد يريد أن يعيش معها. وأضافت بقسوة ساذجة :

أنت الذي أحببتني كل هذا الحب يجب أن تتفهم ذلك .

حاول تعويد «يلينا نيكولاييفنا» على المورفين، وكان هذا، في الحقيقة، الأمر الوحيد الذي أخفق فيه. فبعد المحاولة الأولى شعرت ـ حسب قولها ـ بصفاء جليدي لم يسبق لها أن بلغته، لكن ساءت حالها بعد ذلك، ولم تكرر هذه التجربة قط. في كل ما تبقى شعرت أنها تستسلم للهلاك في نهاية المطاف. فالأشياء التي اعتبرتها ممتعة في البداية، كإمكانية إدراك جديد للعالم، أخذت تبدو لها بديهية شيئًا فشيئًا. ما اعتبرته طوال حياتها مهمًّا وجوهريًّا فقد قيمته بلا رادع وإلى غير رجعة فيما بدا. ما كانت تحبه كفَّت عن حبه. شعرت أن كل شيء يذوي ولا يبقى ـ من حين إلى آخر ـ إلا بهجة مميتة، يعقبها الخواء. شعرت أن سنوات بأكملها من الحياة المضنية تفصلها عن لقائها إياه، وبدا أن لم يبقَ فيها شيء من «لينوجكا» السابقة، التي كانتها منذ زمن ليس ببعيد. حتى طبيعتها تغيرت: حركتها أصبحت أبطأ، وفقدت ردود أفعالها على ما يحدث حدتَها. باختصار، كان الأمر وكأنما كانت غارقة في علة

نفسية عميقة. شعرت أن هذا لو استمر فسوف تنتهي إلى العدم أو إلى السقوط في هاوية باردة. المحاولات التي بذلتها لكي تغير حياته ـ لأنها كانت تحبه بلا شك ـ لم تفضِ إلى شيء. والدفء الذي كان فيها أخذ يضعف بالتدريج ثم تلاشى .

كما يجد الشخص نصف المتسمم بالغاز وفاقد الوعي تقريبًا قوة كافية للزحف إلى النافذة وفتحها، هكذا استيقظت صبيحة ذات يوم لتوضب أغراضها وتذهب إلى محطة القطار ومنها إلى باريس. لكنها قبل ذلك فعلت كل ما في مقدورها، محاولة إعادته إلى الحياة الطبيعية قدر الإمكان. وقد روت لي حديثهما الأخير، الذي جرى مساءً، في شقته. كان جالسًا على كرسي، وكان وجهه متعبًا وعيناه منطفئتين .

قالت له :

ـ إن حياتك مهولة إلى درجة تدفعني إلى الاستسلام. أتقول إنك تحبني؟

هز رأسه موافقًا .

ـ هل تتصور أنني قد يكون لي طفل؟

ـ لا .

ـ يبدو لي أن لي الحق في أن أكون أمًّا مثل أي امرأة أخرى .

هز كتفيه .

ـ كان في إمكاني أن أتزوجك، لكن من الواضح أن هذا محال. لا هذا ممكن ولا ذاك. لماذا؟ إنك تعتبر نفسك محكومًا بالموت. لكننا جميعًا محكومون بالموت .

ـ الأمر مختلف .

ـ لماذا؟

ـ لأن الجميع يدركون ذلك نظريًّا فقط، أما أنا فأعرف حقيقة الأمر. لماذا؟ لا يمكنني الشرح. في بعض السجون يطلقون السجناء في المدينة يومًا أو يومين بناءً على كلمة الشرف. إنهم يرتدون الملابس نفسها كما الآخرين، ويمكنهم كذلك تناول العشاء في مطعم أو الجلوس في مسرح، لكنهم مع ذلك لا يشبهون الآخرين، أليس كذلك؟ لقد أُطلق سراحي لبعض الوقت؛ ولكن لا يمكنني التفكير، ولا العيش مثل الجميع، لأنني أعلم أنهم بانتظاري .

ـ هذا شكل من أشكال الجنون .

ـ ربما. بالمناسبة، ما الجنون؟

ـ إنك تفهم، في كل الأحوال، أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال. لا يمكنني العيش على هذا النحو .

ـ إن أي حياة أخرى ستبدو لكِ الآن غير ممتعة وتفتقر إلى الجاذبية. لن تعيشي ثانيةً أبدًا كما كنت تعيَشين من قبل .

ـ لماذا؟

ـ أولًا، لأن هذا ضعيف الاحتمال .

ـ وثانيًا؟

ـ ثانيًا، لأنني لن أسمح بذلك .

ـ أتريد القول إنك ستمنعني؟

ـ أجل .

ـ وكيف ستفعل ذلك؟

ـ هذا ليس مهمًّا، كيفما كان .

لو لم يجرِ هذا الحديث لكانت، ربما، بقيت معه أيضًا بعض الوقت، لكنها لم تَحتمل فكرة أن في الإمكان إرغامها على أمر ما أو منعها عنه بالتهديد والوعيد .

بعد مغادرتها إياه أيقنت أن كلماته كان فيها قدر كبير من الحقيقة. لقد

سمَّمها قربه، ربما لوقت طويل، وربما إلى الأبد. وها هي كأنما الآن فقط، للمرة الأولى طوال هذه الشهور والسنين، تشعر أن الأمر ربما ليس إلى غير رجعة. قالت هذه العبارة حرفيًّا :

ـ الآن فقط بدأت أفكر أن الأمر ليس إلى غير رجعة .

ابتعدتُ عن النافذة وجلست إلى جانبها على الأريكة .

قالت :

ـ كم أنت دافئ !

ـ إنه لا يعرف مكانك بالطبع؟

ـ كلا، هو يعرف أنني غادرت وحسب. لا أريده أن يكون قادرًا على العثور عليَّ. هل يمكنني أن أستلقي؟ لقد تعبت مما رويته لك. لكن لطالما عرفت أنني سأحكي عن حياتي لأحدهم ذات يوم، لأنه سيسألني ذلك ولأنني سأحبه في هذه اللحظات. هل ترى مدى قِدَم معرفتي بك؟

ـ أجل بالطبع. فيما بعد ستحكين لأحدهم عني وستقولين: «كان يكتب مقالات النعي والتقارير الرياضية ومقالات عن مرأة قُطِّعت قِطعًا»، وماذا أيضًا «لينوجكا»؟

ـ أيضًا؟ أنك كنت تفهم أكثر مما تجيد الكلام، وأن تلميحاتك كانت

معبرة أكثر من الكلمات التي تقولها. لكن ربما لن أقول هذا لأحد .

*

عدت ثانيةً إلى البيت عبر شوارع الليل المقفرة، ومع أنني كنت أود أن أغفو وألا أفكر في شيء، إلا إنني لم أستطع تجنب التفكير في الشخص الذي تحدثت عنه «يلينا نيكولاييفنا». ما الذي أمكن أن يحدث له بحيث أصابه بهذا النوع المخيف من المرض الروحي؟ أعلم أن عمليات البحث عن لحظة الانطلاق، التي تبدأ منها أي علة روحية، صعبة إلى حد الإنهاك دائمًا وغالبًا ما تكون غير مثمرة على الإطلاق. عدا ذلك، حتى لو عثرت على الحل الصائب تمامًا لهذه المسألة، لم تكن لديَّ أي إمكانية للتحقق منه. ثم ما لي حقًّا وهذا الشخص؟ لقد تأكد لي مرة أخرى، بحكم المصادفات المتكررة حتمًا، وربما لأسباب أخرى لم أكن أعرفها، أن في كل مغامرة من مغامراتي الغرامية كان هناك دائمًا عنصر مأساوي لا لزوم له، ولم يكن لي ذنب في ذلك أبدًا تقريبًا. كان ذلك غالبًا ذنبَ واحد من أسلافي، وكان عليَّ أن أدفع ثمنه رغمًا عني. في بعض الحالات كان القدر ساخرًا بشكل خاص فيما يتعلق بي. لم أستطع نسيان كيف أنني التقيت امرأة رائعة من كل النواحي، لكنها كانت تتميز بطبع جهنمي غير مفهوم. أمضيت معها بضع سنوات، وكنت أشفق عليها حقًّا، وفعلت كل ما من شأنه أن يجعلها أقل شقاءً، فقد كانت هي نفسها أولى ضحايا عيوبها. أثرت فيها، أخيراً، فترة السكينة الروحية المديدة تأثيراً مفيدًا، وبعد ذلك هجرتني، مصرة بشكل خاص على أنها لا تشعر نحوي بأي مشاعر سيئة، ومعتبرة،

بلامبالاة غير واعية، أن هذا وحده يجب أن يبدو لي أقرب إلى السعادة غير المستحَقة. وبعد بعض الوقت قال لي عشيقها الجديد، وهو شخص لطيف جدًّا عمومًا، إنها روت له الكثير عني، وإنه سعيد بالتعرف إليَّ، وإنها امرأة مذهلة ذات طبع مثالي تمامًا، معلقًا أن هذا نادر جدًّا في عصرنا العصبي .

وبدأ يلوح لي أن دوري عمومًا ينحصر في أن أظهر بعد الكارثة، وأن كل مَنْ يُقدَّر لي أن أكون معه في تقارب روحي لا بد أن يكون ضحية شقاء ما قبل ذلك. في بعض الحالات كان هذا يتسم بطابع أكثر مأساوية، وفي حالات أخرى أقل. لكن الأمر كان منهكًا دائمًا، وكان يزيده تعقيدًا أنني كنت ـ بسبب عادتي الضارة القديمة التي لم أستطع التخلص منها ـ في كل مرة أفكر في الأمر طويلًا وباستمرار، من دون تقبل الأمور كما هي حقًّا، وأبني من حولها منظومة متكاملة من افتراضاتي الخاصة والعبثية حول كيف كان يمكن أن يكون الأمر لو حدث على نحو مغاير. كنت أبحث دومًا عن الأسباب التي أحدثت هذه الكارثة أو تلك، وهأنذا أفكر الآن في سَلَفي اللندني، في هذا الإنسان الذي لديه ميل غير مفهوم نحو كل ما يشتمل على فكرة الموت. بمَ يمكن تفسير ظهور هذه العلة الروحية؟ لم تكن لديَّ أي معطيات على الإطلاق للبت في الأمر. ناهيكم عن أن هذا السؤال كان يعنيني أيضًا بشكل نظري محض، كما قد تعنيني أي مشكلة نفسية أخرى. نظرًا إلى سنه ـ قالت «يلينا نيكولاييفنا» ذات مرة إنه يكبرني بحوالي عشر سنوات ـ فقد شارك في الحرب على الأرجح، ولعل هذا أثر فيه. كنت أعرف بتجربتي الخاصة ومن خلال الكثير من رفاقي ذاك التأثير المدمر، غير القابل

للإصلاح، الذي تبديه الحرب على كل من يشارك فيها تقريبًا. كنت أعلم أن القرب الدائم من الموت، مظهر القتلى، الجرحى، الموتى، المشنوقين والمقتولين رميًا بالرصاص، اللهب الأحمر الهائل في سماء ليالي الشتاء القارس، فوق القرى المحترقة، جثة فرس المرء وهذه الانطباعات الصوتية ـ ناقوس الخطر، انفجار القذائف، أزيز الرصاص، صرخات اليأس المجهول صاحبها ـ هذا كله لا يمر أبدًا من دون عقاب. كنت أعلم أن ذكريات الحرب، الصامتة، واللاواعية تقريبًا، تلاحق معظم الناس الذين عبروها، وفيهم جميعًا ثمة شيء مكسور إلى الأبد. كنت أعلم من نفسي أن التصورات الإنسانية الطبيعية عن قيمة الحياة، عن ضرورة القوانين الأخلاقية الأساسية ـ عدم القتل، عدم السلب، عدم الغضب، الرأفة ـ هذا كله تجدد فيَّ ببطء بعد الحرب، لكنه فقد يقينيته السابقة وأصبح نظامًا أخلاقيًّا نظريًّا لم أكن قادرًا، من حيث المبدأ، على عدم الموافقة عليه، وأن صوابيته وضرورته نسبيتان. وتلك المشاعر، التي كانت يجب أن توجد في داخلي والتي أوجبت ظهور هذه القوانين، أحرقتها الحرب، ولم يعد لها وجود، ولم يحل شيء محلها .

لم يكن في مقدوره، بالطبع، ألا يعرف كل ما أعرفه أنا. لكن، من ناحية أخرى، مئات آلاف الناس مروا بهذا ولم يصبحوا مجانين. كلا بالطبع، الأكثر بداهة كان افتراض أن أحداثًا مميزة ما قد جرت في حياته، لم تعرف شيئًا عنها حتى «يلينا نيكولاييفنا»، وهي التي تسببت بوضعه الراهن. ما معنى، مثلاً، هذه العبارة: «إل ما راتيه»؟ على أي حال، جَمُد لوقت طويل في عينيها، بلا حراك وبشكل غير طبيعي، تعبير هادئ،

كصورة منسية في مرآة، وكان هذا يتعلق بي مباشرة، وإن لم يكن بالطريقة نفسها ككل ما تبقى ـ لأن كل ما تبقى أيضًا كان، للأسف، يتعلق بي. كنت أشعر أحيانًا، لا سيما تلك الليلة، أثناء عودتي إلى البيت، بغضب غير عادي من استحالة التخلص من عالم الأشياء والأفكار والذكريات ذاك، الذي رافقت حركته العشوائية والساكتة حياتي كلها. كنت مستعدًّا أحيانًا أن ألعن ذاكرتي، التي احتفظت من أجلي بكثير مما كانت حياتي لتكون أسهل من دونه. لكن تغيير ذلك كان مستحيلاً، وفقط في فترات نادرة من حياتي، تطلبت مني بذل كثير من الجهود النفسية، ابتعد هذا كله عني بعض الوقت، وذلك لكي يعود من جديد .

قطعت نصف الطريق سيراً على الأقدام ثم أوقفت سيارة أجرة عابرة، وبوصولي إلى البيت نمت نوم القبور .

أذكر أن الطقس في اليوم التالي كان رائعًا: شمس وسماء زرقاء بسحب بيض ريشية الشكل. سار عملي بسهولة شديدة، وخلال بضع ساعات كتبت مقالة طويلة، هذه المرة ليس عن الجريمة ولا عن الإفلاس وإنما عن بعض مزايا «موباسان». مساءً، حين كنت عند «يلينا نيكولاييفنا»، أخبرتني أنها تشعر بنفسها أصغر سنًّا ببضع سنوات؛ يبدو أنها كانت مرة أخرى خاضعة لتلك الحركة اللاإرادية التي كنت، أنا أيضًا، خاضعًا لها، كما حدث لي في البداية، يوم زيارتي الأولى لها وخلال الأسبوع الذي سبق الزيارة .

ذات يوم، حين كانت تعمل معي وقت الظهيرة، قالت لي إنها مدعوة إلى المسرح في المساء وإننا لن نلتقي إلا صباح اليوم التالي، وقالت وهي تغادر :

ـ سأوقظك مع الفجر .

كنت أعلم أنها تذهب إلى المسرح برفقة صديقتها القديمة التي التقتها مصادفة في باريس. رأيتها مرتين أو ثلاث مرات، وكانت امرأة بهية، جميلة جدًّا؛ لكن عند النظر إليها كانت تظهر لديَّ بسبب ما كل مرة شهية للطعام، بغض النظر عن زمن حدوث ذلك. حتى بعد فطور دسم مباشرة، كان منظرها يثير تصورًا عن الطعام، وعندما أغمض عيني تظهر أمامي بإبهام صور غير واضحة لأفخاذ ولحم زَجَر وسمك السلمون وسرطانات البحر. كانت هذه المرأة تحمل معها، من دون أن تدري، عالمًا كاملاً من التخيلات الغذائية، التي كانت هي السبب في إثارتها. لم أستطع قط معرفة سبب حصول ذلك وعلى هذا النحو بالذات؛ وبسبب عدم وجود معارف مشتركين بيننا لم أعرف حتى ما إذا كان الآخرون يشاطروونني هذا التصور أم كان نتيجة تحريفي الخاص، وغير المفهوم فوق ذلك. كانت متزوجة بفرنسي، وكان إنسانًا لطيفًا جدًّا لكن عديم الشخصية .

قالت «يلينا نيكولاييفنا »:

ـ تعال إن شئت. «آني» ستطعمك .

لكنني رفضت، وفي التاسعة والنصف مساءً ذهبت إلى المطعم الروسي، وحين أصبحت على مقربة منه تذكرت الأغاني الغجرية العاطفية و«فوزنيسنسكي»، ولما دخلت رأيته على الفور. لم يكن وحده، فإلى طاولتَه كان يجلس شخص يرتدي بذلة رمادية فاتحة، وظهره إليَّ، وشعره الأشقر لم يكن يغطي تمامًا صلعته الناشئة حديثًا. لوَّح لي «فوزنيسِنسكي» بيده ونهض واقفًا من مكانه داعيًا إياي، ولما دنوت قال :

ـ أنا سعيد حقًّا برؤيتك يا صديقي العزيز. اسمحا لي بتعريف أحدكما بالآخر: «ساشا ولف» شخصيًّا، أو «ألكسندر أندرييفيتش»، القادم توًّا من لندن .

ثم قال مخاطبًا النادلة التي دنت من الطاولة بالتزامن معي :

ـ أحضري دورقًا آخر من فضلك أيتها الحسناء. هيا أيتها الصغيرة، لا تبخلي علينا .

أدار «ألكسندر ولف» رأسه، ورأيت وجهه. كان لا يزال وسيمًا، ومظهره يدل على أنه في الأربعين. ربما لو لم أعرفه أنه هو لما أوليته اهتمامًا خاصًّا. لكن بما أنني كنت أعرف ذلك، فقد بدا لي من دون شك أنني إنما أرى أمامي ذاك الوجه الذي أعرفه معرفة مخيفة منذ زمن بعيد، والذي لاحقتني ذكراه كل هذه السنين. كانت بشرته شديدة البياض وعيناه بنيتين جامدتين .

قال «فوزنيسِنسكي »:

ـ لقد حدثته عنك. لولاه، يا «ساشا»، لما عرفت ماذا كتبتَ في كتابك. اجلس يا صديقي، ولنحتسِ قدحًا، فنحن أرثوذوكس والحمد لله .

لم أجد كلمات أبدأ بها الحديث مع «ولف». فلكثرة ما فكرت في اللقاء به كل هذا الوقت، ولكثرة ما أردت أن أقول له من أشياء، لم أعرف بِمَ أبدأ. فضلاً عن أن حضور «فوزنيسنسكي»، وجو المطعم واحتساء الفودكا، لم تكن مناسبة لذاك الحدَيث الذي فكرت فيه مرارًا وتكرارًا. كان «ألكسندر ولف» قليل الكلام ويكتفي بردود موجزة. لكن «فوزنيسِنسكي»، في المقابل، لم يتوقف عن الكلام. ما إن جلست إلى الطاولةَ حتى شرب قدحه التالي وراح ينظر إلى «ولف» باهتمام ثمل .

قال «فوزنيسِنسكي» ببلاغة غير مألوفة :

ـ صديقي «ساشا»، حسبك أن تعرف قدرك عندي، إذ ما من صديق لي سواك. لقد رفعناك ـ اللعنة ـ ميتًا عن الأرض، وعالجك الطبيب في المستشفى. أصحيح هذا أم لا؟ وإذا كان صحيحًا، فإلى من ذهبت «مارينا» حين هجرتني، هه؟ ويا لها من فتاة يا «ساشا»! هل عرفت أفضل منها يومًا؟

قال «ولف» بصلابة غير متوقعة :

ـ عرفت .

ـ إنك تكذب يا «ساشا». هذا مستحيل. أما أنا فلم أعرف ولن أعرف. لِمَ لا تكتب عنها، ولو بالإنجليزية؟ فهي جيدة في كل اللغات. اكتب يا «ساشا»، كن صديقًا .

رنا إليه «ولف» من دون أن يبتسم ثم حول نظره إليَّ .

قلت :

ـ أثارت اهتمامي قصتك «ذي أدفنتشر إن ذا ستب» لبعض الأسباب، التي سأبسطها لك في ظرف أنسب إن سمحت. أود عمومًا التحدث إليك حول بعض الأمور المهمة من وجهة نظري .

أجاب :

ـ أنا في خدمتك. نلتقي هنا بعد غد إن شئت، الساعة الخامسة. لقد حكى لي «فلاديمير بيتروفيتش» عن أحاديثكما .

قلت :

ـ حسن جدًّا، بعد غد إذن، الساعة الخامسة، هنا .

لكني لم أغادر فورًا. كل مرة، كلما أمكن ذلك، كنت أنظر إلى «ولف» بذاك التوتر الحريص والثاقب الذي كان سمة كل علاقتي به، والذي لم يهن إلا في الآونة الأخيرة، لأن مشاعر أخرى، أقوى، تملكتني. بذلت

جهدًا لإرغام نفسي على أن أراه كما كان سيبدو لي لو لم أكن أعرف عنه شيئًا، حاولت أن أنحي جانبًا تلك التصورات الملحاحة التي طاردت مخيلتي طويلاً جدًّا والتي كانت تزعجني في تلك اللحظات، بيد أنني لا يمكنني القول بثقة إلى أي مدى نجحت في ذلك. بدا لي أن وجه «ولف» فيه ما يميزه بشدة عن الوجوه الأخرى التي سبق أن رأيتها. كان تعبيراً يصعب تحديده، شيء أشبه بتعبير ميت؛ تعبير تبدو رؤيته في وجه إنسان حي عديمة الاحتمال تمامًا. بالنسبة إلى مَن قرأ كتابه باهتمام، مثلي، كان أمرًا بالغ الغرابة أن يتمكن هذا الشخص بالذات، ذو النظرة الجامدة وهذه التعابير التي يتعسر وصفها، من كتابة أدب نثري سريع وسلس كهذا، وأن يرى كل هذه الأشياء بعينيه الجامدتين .

«بنيث مي لاي ماي كوربس ويذ ذي أرو إن ماي تمبل »

تذكرت فجأة هذا الاستهلال لقصة «ذي أدفنتشر إن ذا ستب». هاكم الأمر الرئيس فيه: كان بالفعل شبيهًا بطيف. كيف لم أدرك ذلك منذ البداية؟ شعرت فجأة بالبرد لبضع ثوان. ومرة أخرى صدح صوت من الحاكي بأغنية «فوزنيسِنسكي» المفضلة :

لا داعي لأي شيء

لا للإشفاقات المتأخرة ...

وتذكرت أنني تصوَّرت منذ زمن بعيد ما يحدث الآن: المطعم، والموسيقى، وهذا الوجه الميت لمؤلف «آيل كام تومورو» المجهول،

عبر الشجن الغجري الثمل. أغمضت عينيَّ؛ تصاعد متضافرًا أمامي اتحادٌ غير معقول من الأفكار والذكريات والمشاعر، ومر هذا كله عبر خلفيات عدة وعبر تلك الألحان المتخيَّلة التي فكرت فيها عندما تخيلت غناء «مارينا» بمرافقة عزف «ساشا ولف» على البيانو. ثم رأيت بوضوح خارق، كأنما في المنام، شعيرة تسديد المسدس السوداء المتأرجحة أمام عيني اليمنى. أخذ يتهيأ لي أنني محموم، وأنني أبدأ بالهذيان .

نهضت أخيراً وغادرت، على الرغم من احتجاجات «فوزنيسنسكي» الصاخبة، وقد مد نحوي يده وهو ممسك بقدح الفودكا، ورَاح يقنعني في البداية بالبقاء هنا قليلاً بعدُ، ثم بالذهاب إلى أي مكان آخر. ربما كان سيصعب عليَّ كثيراً رفض دعواته الملحاحة، لكنني تذرعت بالعمل العاجل. كل ما له علاقة بالأدب والصحافة كان يُعد مقدسًا تقريبًا بالنسبة إليه، ولم تكن أي درجة من درجات سكره لتُغير ذلك .

قال :

ـ في هذه الحالة لن أجرؤ على استبقائك يا صديقي العزيز. أتمنى لك جهودًا موفقة .

خرجت من المطعم، ولم تكن لديَّ رغبة في العودة حالاً إلى البيت. سرت في شارع «لا كونفانسيون»، متوجهًا نحو نهر السين. كانت الساعة قرابة الحادية عشرة والنصف ليلاً، وكان الجو دافئًا، والأوراق

الفتية تخشخش على الأشجار المورقة حديثًا، التي لم تلحق بعدُ أن تتخذ ذاك المظهر الذابل والمغبر الذي تكون عليه في الصيف. لقاء «ولف» لم يمنحني الطمأنينة؛ للمرة المائة استعدت في ذاكرتي كل ما كان مرتبطًا به، من لحظة استلقائه في عرض الطريق، وصولًا إلى الكتاب الذي كتبه، ولقائي بالناشر اللندني الذي يكرهه هذه الكراهية المخيفة. فكرت في أن «ولف» قد أصبح بالنسبة إليَّ ـ وليس هو شخصيًّا بقدر أي فكرة عنه ـ تجسيدًا لاإراديًّا لكل ما هو ميت ومحزن في حياتي. أُضيف إلى ذلك أيضًا إدراكي لذنبي: شعرت بنفسي، كقاتل تقريبًا، مصعوقًا بالجريمة المرتكبة للتو، أقف عند جثة ضحيتي. وعلى الرغم من أنني لم أكن قاتلًا، و«ولف» لم يكن ضحية، فإنني لم أستطع إبعاد هذا التصور. تساءلت: بمَ أنا مذنب حقًّا أمامه؟ وعلى الرغم من أنني كنت أعتقد أن أي محكمة كانت ستبرئني ـ المحكمة العسكرية لأن القتل هو قانون الحرب وجوهرها، والمحكمة المدنية لأنني كنت في حالة دفاع عن النفس ـ فإن في هذا كله بقي شيء ما مضن إلى أقصى الحدود. لم أرد قط أن أقتله، فقد رأيته قبل دقيقة فقط مَن إطلاقي النار. لماذا إذن كان التفكير فيه يشتمل على هذا الندم الذي لا سبيل إلى إصلاحه، على هذا الأسى القاهر؟

وبتلك الفجاءة نفسها، كما حين فهمت قبل نصف ساعة في المطعم ما الذي جعل «ولف» لا يشبه الآخرين ـ بالتحديد تصوري بأنه طيف والتطابق العَرَضي لمظهره الخارجي مع هذا التصور ـ كذلك بات واضحًا لي الآن سبب إدراكي لذنب لا وجود له. إنها فكرة القتل نفسها التي شغلت مخيلتي مرات كثيرة بذلك الإلحاح الآمر. كانت تشبه،

ربما، الومضة الأخيرة لنار تنطفئ، العودة لبرهة إلى الغريزة البدائية؛ كان هذا، مرة أخرى ربما، تجليًّا فريدًا لقانون الوراثة، وكنت أعلم أن لديَّ كثيراً من الأسلاف الذين كان القتل والثأر بالنسبة إليهم تقليدًا مُبرمًا وحتميًّا. وهذا الجمع بين الغواية والاشمئزاز، هذا الاستعداد الراسخ للإجرام، فيما يبدو، كان موجودًا فيَّ دائمًا، وإدراك ذلك كان، بالطبع، مادة للندم المضني الذي أعانيه الآن. الفكرة المتعلقة بـ«ولف» كانت الذكرى الأقوى عن هذه الميزة، التفصيل الجرمي نظريًّا لسيرة حياتي النفسية. لولا وجود «ولف» لربما بقيت في مجال مخيلتي ولربما كان لديَّ وهمٌ مواس بأن هذا كله ليس سوى نتاج فانتازياي، وأنه لو كان يجب أن يحدثَ في الواقع لوجدت في ذاتي ما يكفي من القوة النفسية لمنع نفسي من القيام بالحركة الأخيرة التي لا رجوع عنها؛ لكن وجود «ولف» حرمني هذا الوهم الباطل. عدا ذلك، إذا كان إطلاق النار قد كلفني هذا الثمن الباهظ، فالأرجح أن عواقبه لم يمكن لها ألا تنعكس على حياة «ولف» برمَّتها. مقارنًا مرة أخرى كل ما رواه «فوزنيسنسكي» عن «ساشا ولف» في هيئة مؤلَف «آيل كام تومورو»، فكرت فَي أن حياة سعيدة كانت تنتظره، ربما، لولا جريمة القتل غير المكتملة تلك، ولبقيت مجهولة تلك الأشياء الكئيبة المذكورة في كتاب «ألكسندر ولف». استغرقت في التفكير في ذلك وتذكرت ـ كم مرة؟ ـ كلمات عشيق «يلينا نيكولاييفنا» اللندني: «إن تعاقب الأحداث في أي حياة بشرية... عجائبي ».

أجل بالطبع؛ ولو أنني بدأت أُدخل في مجموع هذه الظواهر المختلفة والمتزامنة قانون السببية المألوف، كعنصر إيضاح، لبدت عجائبية ما

يحدث أكثر جلاءً، ولتبيَّن أن عالماً بأكمله انبثق تمامًا من حركة واحدة من حركاتي. وإذا اعتبرنا أن بداية سلسلة طويلة من الأحداث كانت يدي الممدودة مع المسدس والطلقة التي اخترقت صدر «ولف»، فقد وُلدتْ من الفاصل الزمني القصير، كإطلاق رصاصة، حركة معقدة لم يكن قادرًا على التنبؤ بها ولا حسبانها أي عقل بشري ولا أي مخيلة، حتى الأكثر جبروتًا وإعجازًا. من كان بإمكانه أن يعلم أن في هذا الطيران الدائري اللحظي كانت تكمن، في الحقيقة، المدينة على «الدنيبر»، وروعة «مارينا» العصية على الوصف، وأساورها، وأغنياتها، وخيانتها، واختفاؤها، وحياة «فوزنيسنسكي»، وعنبر السفينة، والقسطنطينية، ولندن، وباريس، وكتَاب «آيل كام تومورو»، والاستهلال عن جثة مع سهم في الصدغ؟

*

عند مغادرتي شقة «يلينا نيكولاييفنا» في اليوم التالي قلت لها :

ـ لا أدري في أي ساعة سآتي غدًا أو حتى إذا ما كنت سآتي عمومًا. سأتصل بك بالهاتف .

ـ هل حدث شيء؟

ـ كلا، لكن لديَّ لقاء مهم جدًّا .

ـ مع رجل أم امرأة؟

ـ مع طيف. سأخبرك عن الأمر لاحقًا .

لم يكن في المطعم أحد حين وصلت هناك، ما عدا سائق سيارة أجرة ثملاً قليلاً، كان يقبِّل بلا توقف يد النادلة التي تخدمه وهو يروي لها عن خوالجه. وصلت هناك الساعة الخامسة إلا عشر دقائق. لم يكن «ولف» قد وصل بعد، لذا تسنى لي سماع ما يقوله السائق بالضبط. كان شخصًا كيسًا جدًّا، كيسًا بالتحديد، وفارسًا سابقًا، بالغ اللطف ـ أقله في حالة السكر ـ و«عزيزَ قومٍ ذُلَّ» كما يقول أهل الريف .

جلست ورحت أحتسي القهوة. تناهى إليَّ صوت السائق وهو يقول :

ـ كتبت إليها رسالة آنذاك. كتبت إليها: «ما العمل يا عزيزتي، فقد تفارق دربانا». لكنني أضفت عبارة لن تنساها أبدًا ربما .

سألت النادلة :

ـ وما هذه العبارة؟

ـ كتبت ما يلي حرفيًّا: «لقد رفعتك إلى هذه المنصة العالية، لكنك نزلتِ منها بنفسك ».

في هذه اللحظة دخل «ألكسندر ولف» المطعم، وكان يرتدي بذلة أخرى، زرقاء غامقة اللون. صافحته، وطلب لنفسه قهوة، وراح ينظر إليَّ بهدوء مترقبًا. على الرغم من أنني فكرت كثيراً فيما سأقول له وبِمَ أبدأ

الحديث، فإن كل شيء خرج ليس كما افترضت. لكن هذا لم يكن له أهمية بالطبع .

قلت :

ـ قبل بضعة أشهر، وبينما كنا جالسَين إلى هذه الطاولة نفسها، أخبرني «فلاديمير بيتروفيتش» عن تعارفكما. كان ذلك بعد أن مُنيت محاولتي الأولى لمعرفة أي شيء عنك ـ سأتحدث عن ذلك لاحقًا إن سمحت لي ـ بفشل ذريع غير متوقع .

سأل :

ـ ما الذي أثار حقًّا هذا الاهتمام من قبلك تجاهي؟

مرة أخرى لم أستطع ألا أنتبه لصوته، الرتيب جدًّا، وغير المعبرِّ، والخالي من أي تغيير حاد في النبرة .

أخرجت كتابه من حقيبتي وفتحته على الصفحة التي تبدأ فيها قصة «مغامرة في السهب» وقلت :

ـ كما تذكر، تبدأ قصتك بذكر حصان أصيل أبيض يتمتع بجمال خارق، كأنه آت من «سفر الرؤيا»، توجه البطل على صهوته للقاء الموت. بعد الأحداث، التي توصف لاحقًا، يتساءل البطل عما حدث للشخص الذي أطلق عليه النار والذي واصل الخَبَب مسرعًا نحو

الموت على صهوة هذا الحصان نفسه، في الوقت الذي كان البطل يحتضر مستلقيًا في عرض الطريق مع رصاصة استقرت أعلى قلبه بقليل. أليس كذلك؟

نظر إليَّ «ولف» بانتباه شديد، مضيِّقًا عينيه الساكنتين بالكاد .

ـ أجل، وماذا في ذلك؟

قلت :

ـ يمكنني إجابتك عن هذا السؤال .

لم تتغير ملامح وجهه، عيناه فقط اتسعتا .

ـ يمكنك إجابتي عن هذا السؤال؟

كنت أتنفس بصعوبة، وشعرت بضيق غير عادي في صدري .

قلت :

ـ أذكر الأمر كما لو أنه حدث أمس. أنا من أطلق عليك النار .

نهض عن الطاولة فجأة وظل واقفًا لثانية كأنما يفكر ماذا يفعل. بدا لي أن قامته طالت بطول رأس كامل، وحين لمحت عينيه، المتسعتين

والجامدتين كما كانتا، اللتين ظهر فيهما واختفى شيء ما مخيف فعلاً، أدركت في تلك اللحظة أن كاتب «آيل كام تومورو» بقي فيه مع ذلك شيء منسي تقريبًا، ميت تقريبًا، لكن بالذات ما عرفه «فوزنيسنسكي» آنذاك وما اكتشفته حينها، فقط لأنني كان في حوزتي مسدسَ، وفقط لأنني كنت مؤهلاً أن أصبح قاتلاً. لكن «ولف» جلس فورًا ثانيةً وقال :

ـ اعذرني من فضلك. أنا مصغٍ .

ـ لقد كان وجهي الذي رأيتَه بعد أن سقطتَ عن الحصان. لم تخطئ الوصف. كنت في السادسة عشرة آنذاك. كنت بين النوم واليقظة على الأرجح، ولم أكن قد نمت قبل ذلك حوالي ثلاثين ساعة. كنت أنا من غادر على صهوة حصانك، لأنك قتلت بطلقتك الأولى فرسي الدهماء. كنت أنا من وقف منحنيًا فوقك. لقد أسرعت في المغادرة لأن الريح حملت إليَّ صوت وقع حوافر بعيد. وقد تبين لي منذ وقت قريب، من الحديث إلى «فلاديمير بيتروفيتش»، أنه كان وقع حوافر الخيول التي كان هو واثنان من رفاقه منطلقين على ظهرها بحثًا عنك .

ظل «ولف» صامتًا. كان السائق الثمل تمامًا يتحدث مرة أخرى عن رسالته، لكن إلى نادلة أخرى .

ـ ... منصة عالية جدًّا، وأنتِ نزلتِ عنها بنفسك .

قال «ولف» بنبرة مؤكِّدة :

ـ هذا يعني أنه أنتَ .

أجبت :

ـ لسوء الحظ. لم تغادرني ذكرى ذلك طوال هذه السنوات. لقد دفعتُ ثمنًا باهظًا جدًّا لقاء طلقتي. في كل الأحاسيس التي أحسستها، حتى أفضلها، كانت تبقى دائمًا مساحة معتمة وخالية كان فيها دائمًا ذاك الندم نفسه على أنني قتلتك. وأظن أنك تدرك مدى سعادتي حين قرأت قصتك وعلمت أنك بقيت على قيد الحياة. وأرجو أن تعذر وقاحتي الآن فيما يتعلق ببحثي عن كاتب «آيل كام تومورو ».

انتظرت جوابه. ظل صامتًا. ثم تنهد، وحينئذ لاحظت أنه، فيما يبدو، لم يكن أقل اضطرابًا مني. قال :

ـ هذا غير متوقع على الإطلاق، فقد تخيلتك بصورة مختلفة تمامًا، وكم اعتدت فكرة أنك لم تعد بين الأحياء منذ زمن بعيد ...

ظهر «فوزنيسِنسكي» عند الباب، فسارع «ولف» يقول :

ـ سنتحدث عن هذا هنا غدًا، في هذا الوقت نفسه. حسنًا؟

أومأت برأسي موافقًا .

كان «فوزنيسِنسكي» منشرح الصدر بصورة مميزة ذلك اليوم. ربت على

كتف «ولف» وصافحني وجلس إلى الطاولة، وحين أخذت النادلة تعد الطاولة وتضع دورقًا من الفودكا عليها، صب ثلاثة أقداح وقال :

ـ إيه يا «ساشا»، ليحفظك الله. وأنت يا صديقي العزيز، من يدري ما الذي يهيئه لنا المستقبل؟

كان «ولف» شارد الذهن وصامتًا .

قال «فوزنيسِنسكي» بعد القدح الرابع :

ـ إنجلترا أو غير إنجلترا، لكن يقال إنهم يشربون جيدًا هناك. أسلِّم بذلك عن طيب خاطر. لكن هأنا إنسان روسي متواضع، ولن تخيفني أي إنجلترا. أنا مستعد للشرب مع أي إنجليزي، وحينئذ سنرى .

ثم رنا إليَّ في عتب وقال :

ـ هاك صديقنا، إنه يتناول المزَّة أكثر مما يشرب. بالطبع، لا داعي أن يموت المرء من الجوع في المطعم، لكن المشروبات هي الأهم .

حين بدأ الحاكي يدور أخذ «فوزنيسِنسكي»، الذي يعرف كل الأغاني الرومانسية، يغني بصوته الخفيض، وعند الأسطوانة السادسة قال «ولف »:

ـ أنت لا تتعب يا «فولوديا». لو أنك تستريح .

هز «فوزنيسِنسكي» كتفيه وقال :

ـ صديقي العزيز، مِمَّ يستريح المرء هنا؟ إنني، يا أخي، لم أنسَ أصلي. فأجيال كثيرة من أسَلافي غنوا حتى شُقت حناجرهم بحيث إن هذا الكلام فارغ بالنسبة إليَّ .

حين انتهينا من تناول الغداء أخذ صخب خفيف يصخب في رأسي، على الرغم من أنني شربت قليلاً جدًّا. اقترح «فوزنيسنسكي» أن نخرج لنتمشى، حسب تعبيره، لكن لم نكد نخرج إلى الشارَع حتى أوقف سيارة أجرة، وتوجهنا إلى «مونمارتر»، وهناك أخذنا نتجول في مختلف الأماكن، وقبيل انتهاء تجوالنا اختلط كل شيء في ذهني. تذكرت فيما بعد أنه كانت هناك نساء خلاسيات عاريات، وأن ثرثرتهن الحلقية كانت تبلغ مسمعي بغير وضوح، ثم نساء أخريات، بملابس ومن دون ملابس؛ وشبان سُمر من نمط أهل الجنوب يعزفون على آلات الجيتار، كان هناك غناء زنجي وجاز يصم الآذان. أدت زنجية ضخمة ببراعة غير عادية رقصة البطن؛ رحت أنظر إليها وشعرت أنها كلها مؤلفة من أجزاء منفصلة من اللحم الأسود المطاطي، وكان كل جزء في جسمها يتحرك باستقلالية عن الآخر، كما لو أن هذا يحدث في مسرح تشريحي عجيب عاد إلى الحياة فجأة. ثم صدحت الموسيقى مجددًا، حيث عزفت قيثارات من هاواي، فقال «فوزنيسِنسكي» الذي كان يحمل في يده كأسًا تحتوي على سائل أخضر مشوَب البياض :

ـ من كان يومًا في «تاهيتي» سيعود حتمًا لكي يموت هناك بالتحديد .

وغنى على إيقاع الموسيقى بصوته الجهوري الأجش ثم أضاف :

ـ ما هي المرأة الشمالية؟ إنها وميض الشمس على الجليد .

كان ثمله يحمل طابعًا إيروتيكيًّا دمثًا، وقد شرب في صحة كل النساء اللواتي سامرهنَّ لفترة وجيزة، وبدا سعيدًا تمامًا .

بعد ذلك حلت محل هذه اللوحات الغريبة كلها تسليات أوروبية أكثر: غنى غجر مجريون، وأدى فنانون وفنانات فرنسيون وَصَلاتهم. حين خرجنا إلى الشارع من كباريه على مقربة من «بولفار روششوار»، كان ثمة شجار بين أشخاص مريبين، وعلى الفور انخرطت فيه أيضًا نساءٌ رُحن يصرخن بأصوات وحشية حادة. كنت واقفًا بجوار «ولف»؛ وكان مصباح الشارع يضيء بقوة وجهه الأبيض الذي كان يعبر عن يأس هادئ، كما بدا لي. شعرت أنني أنظر من الجانب، بعينين شاردتين بعيدًا، إلى هذا الحشد الوحشي والغريب عني، بل حتى شعرت أنني أسمع صرخات غير مفهومة بلغة لا أعرفها، مع أنني، بالطبع، كنت أعرف كل لكنات هذه اللغة الخاصة بالقوادين والمومسات، وكل كلماتها. شعرت باشمئزاز مزعج امتزج، بطريقة غامضة، باهتمام شديد بهذا العراك. بيد أن الأخير سرعان ما أوقفته دورية كاملة من رجال الشرطة، الذين وضعوا في ثلاث شاحنات ضخمة قرابة عشرين رجلاً وامرأة مضرَّجين بالدماء، وغادروا. بقي على الرصيف بضع قبعات نصف مدعوسة وحمالة صدر زهرية اللون لا يُعرف كيف فقدتها إحدى المشاركات في قتال الشارع. ومع أن هذه التفاصيل يفترض بها أن تمنح

يقينية شديدة لكل ما شهدته، إلا إنني لم أستطع التخلص من انطباع الفانتازيا الجلية لهذه النزهة الليلية، وكأنما في الصمت المعتاد لمخيلتي كنت أسير في مدينة غريبة ومجهولة جنبًا إلى جنب مع طيف منامي المديد والمتواصل .

بدأ الفجر ينبلج؛ عدنا إلى البيت سيراً على الأقدام. سرنا عبر المزيج الكدر للمصابيح وضوء الفجر في الشوارع شديدة الانحدار، نازلين من «مونمارتر». بعد هذه الليلة الصاخبة والمنهكة كان صعبًا عليَّ متابعة ما يقوله «ولف»، لكنني أتذكر بعض الأشياء. كان محدِّثًا ممتعًا، واسع الاطلاع، ويرى كل شيء رؤية مميزة؛ وأنا أيضًا فهمت لماذا هذا الإنسان بالتحديد استطاع كتابة كتاب كهذا. في تلك الليلة تكوَّن لديَّ انطباع أنه، في الحقيقة، لا يبالي بكل ما في الدنيا: كان يتحدث عن كل شيء تمامًا كأنما لا يعنيه شخصيًّا. كانت فلسفته تتميز بانعدام الوهم فيها: المصير الشخصي غير مهم، فنحن نحمل موتنا معنا دائمًا، أي التوقف، الآني غالبًا، لإيقاع الحياة المعتاد؛ تولد كل يوم عشرات العوالم وتموت عشرات غيرها، ونحن نعبر هذه الكوارث الكونية غير المرئية مفترضين، خطأً، أن قطعة الفضاء الصغيرة تلك، التي نراها، إنما هي إعادة إنتاج العالم عمومًا. لكنه، مع ذلك، كان يؤمن بنظام يصعب تحديده للقوانين العامة، بيد أنه بعيد عن أي تناغم رغيد: ما يبدو لنا مصادفة عمياء هو غالبًا أمر محتوم. كان يعتقد أن لا وجود للمنطق خارج البُنى الشرطية والتعسفية، الرياضية تقريبًا؛ وأن الموت والسعادة إنما هما مفهومان للسياق نفسه، فكلاهما يتضمن فكرة الثبات .

ـ ماذا عن آلاف الكائنات السعيدة؟

ـ أجل، الناس الذين يعيشون مثل جِراء عمياء .

ـ ليس حتمًا، قد يكون الأمر غير ذلك .

ـ لو أننا نتمتع بتلك الشجاعة الضارية والمحزنة، التي تجبر الإنسان على العيش مفتوح العينين، ترى هل يمكن للمرء أن يكون سعيدًا؟ يستحيل حتى تصوُّر أن يكون أولئك الذين نعتبرهم أناسًا رائعين أشخاصًا سعداء. لم يكن في مقدور «شكسبير» أن يكون سعيدًا. و«ميكيلانجلو» لم يكن في مقدوره أن يكون سعيدًا .

ـ و«فرنسيس الأسيزي»؟

كنا نعبر الجسر فوق نهر السين، وكان الضباب المبكر، الذي كانت تلوح من خلاله المدينة شبه الظليلة، مخيمًا فوق النهر .

قال «ولف »:

ـ لقد أحب العالم كما يحب الناس الأطفال الصغار، لكنني لست متأكدًا مما إذا كان سعيدًا. تذكر أن المسيح كان حزينًا دائمًا، ولا يمكن تصور المسيحية مطلقًا خارج هذا الحزن .

ثم أردف بنبرة مختلفة :

ـ لطالما بدا لي أن الحياة تشبه في شيء ما رحلة بالقطار: هذا التباطؤ للحياة الشخصية، الكامن في الحركة الخارجية المندفعة؛ هذا الأمان الظاهري؛ وهم الاستمرارية هذا. ثم، وفي لحظة مباغتة واحدة، ينهار الجسر أو تخرج السكة عن مسارها ويتوقف ذاك الإيقاع نفسه، الذي ندعوه الموت .

ـ هل تتخيله على هذا النحو بالذات؟

ـ وهل تراه بصورة مختلفة؟

ـ لا أدري. لكن لولا «توقف الإيقاع» القسري هذا، كما تسميه، فربما يحدث الأمر بطريقة مختلفة: مغادرة بطيئة، أو تبرُّد تدريجي وغير ملحوظ تقريبًا، أو انزلاق بلا ألم تقريبًا إلى حيث كلمة «إيقاع» لا يعود لها معنًى ربما .

ـ لكل إنسان، بالطبع، ميتته الخاصة المتميزة، مع أن تصوره لها قد يكون مغلوطًا. أنا، مثلاً، واثق بأنني سأموت تلك الميتة العنيفة والمباغتة، تمامًا كما حدث في لقائنا الأول. إنني متأكد من ذلك تقريبًا، مع أن هذا ضعيف الاحتمال، كما يفترض، في ظروف حياتي الراهنة المسالمة والهانئة .

افترقنا أخيراً، وعدت إلى البيت. كان عليَّ أن ألتقيه الساعة الثالثة عصرًا في المطعم، ذلك أننا لم نتحدث بعدُ في الأهم، وبالتحديد عن هذه «المغامرة في السهب ».

*

في أثناء هذا اللقاء بدا «ولف» أكثر حيوية بعض الشيء من قبل، فقد كانت مشيته أكثر رشاقة، ولم ألحظ في عينيه هذه المرة تعبيرهما الشارد، بعيدًا عن المألوف. صوته فقط كان رتيبًا وغير معبر، كحاله دائمًا .

أخبرته قصة محاولتي الفاشلة لمعرفة ما يعنيني عنه، وخصوصًا زيارتي لمدير دار النشر اللندنية. لم أستطع منع نفسي من إخباره أن كلمات هذا الشخص الأخيرة أثارت ذهولي .

أجاب «ولف »:

ـ عليَّ الإقرار بأن لديه بعض الأسباب لقول ذلك. فقد اعتبرني مذنبًا في قصة مأساوية جدًّا عاشها. لا يمكنني، للأسف، إطلاعك على تفاصيلها. لا يحق لي ذلك. رأيه فيَّ كان خاطئًا عمومًا، لكنني تفهمته .

قلت :

ـ جانب واحد من هذه المسألة أقلق راحتي، جانب سيكولوجي محض، يصعب شرحه، إن شئت. لم أشك في أن الوصف الذي وصفه «فلاديمير بيتروفيتش» لـ«ساشا ولف» يطابق الواقع. لكن كيف استطاع «ساشا ولف» نفسه هذا، الثوري والمغامر، أن يكتب «آيل كام تومورو»؟

ابتسم ابتسامة كالحة جدًّا، بشفتيه فقط .

ـ ما كان «ساشا ولف» ليكتب «آيل كام تومورو» بالطبع، وأظن أنه ما كان ليكتب شيئًا. لكنه لم يعد موجودًا منذ زمن بعيد، وهذا الكتاب كتبه شخص آخر. أعتقد أن على المرء الإيمان بالقدر. وإن كان الأمر كذلك فينبغي اعتبار ـ بتلك السذاجة التقليدية نفسها ـ أنك كنت أداته. حينئذ يتطابق كل شيء: المصادفة، إطلاق النار، سنواتك الست عشرة، حدة بصرك الفتي، وهذه ـ ولمس أسفل كتفي ـ يدك غير المرتعشة .

فكرت لاإراديًّا في مدى قساوة وقع كلماته. كنا جالسَين في المطعم الروسي، وكان يتناهى من المطبخ ضجيج الأواني وصوت الطاهي الهائج :

ـ قلت لها: ««الكستليتة» هي الأهم، «الكستليتة» هي الأساس ».

ـ تقول إنك تتذكر كل شيء كما لو أنه حدث أمس. أنا أيضًا أتذكر كل شيء. حين نهضتَ بعد سقوطك ووقفت بلا حراك على ذلك النحو، ظننت أنك تجمدت من الهلع. ألم تفزع آنذاك؟

ـ يبدو أن لا. صُعقت في البداية، لكنني فيما بعد عمومًا لم أفهم بشكل دقيق جدًّا ما جرى، فقد أردت النوم باستماتة، وذهبت جهودي كلها في مصارعة هذه الرغبة. فضلاً عن أنني عمومًا لا أخشى الموت، أو الأصح أن الحياة لم تبدُ لي يومًا ذات قيمة مميزة .

ـ بيد أنها القيمة الوحيدة المقدر لنا معرفتها .

نظرت إليه بدهشة، فقد كان وقعُ هذه العبارة من شفتيه مفاجئًا بصورة خاصة .

ـ أدركت هذا عندما كنت أحتضر، مستلقيًا في عرض الطريق. في تلك اللحظات كان هذا واضحًا بالنسبة إليَّ، واضحًا إلى حد الإبهار. لكنني لم أستطع فيما بعد قط استعادة هذا الإحساس، ولأنني لم أستعده فقد تحولت إلى مؤلف هذا الكتاب. انتظرت دائمًا، طوال حياتي، أن يحدث فجأة شيء غير متوقع على الإطلاق، هزة غير محتملة ما، وأن أرى من جديد ما أحببته كل هذا الحب فيما سبق، هذا العالم الدافئ والمحسوس الذي فقدته. لا أعلم لماذا فقدته، لكن هذا حدث آنذاك بالتحديد. لا يمكنني إخبارك كم كان اختفاء كل شيء عشت فيه مخيفًا: هذه الطريق، هذه الشمس وعيناك الناعستان فوقي. ظننت أنك متَّ منذ زمن بعيد. شعرت بالأسف عليك، فقد كنتَ رفيق دربي ـ وها قد هويت في هاوية سنوات ومسافات ما، وكنت الإنسان الوحيد الذي شهد رحيلك. لو استطعت الكلام آنذاك لصرخت لك بأن عليك التوقف، وأنه ينتظرك كما كان في انتظاري، وأنه لن يخطئ التسديد في المرة الثانية. ولكنت مخطئًا، كما ترى. لو أنك عرفت كم مرة تذكرتك! أردت إعادة الزمن إلى الوراء. أردت ألا يجثم عبء موتك على ضميري، وألا أكون قد جعلتك بدورك قاتلاً .

قلت :

ـ وأنا أيضًا تذكرت ذلك، وكنت لأبذل الغالي والنفيس لكي لا يتعقبني طيفك طوال هذه السنوات .

قال «ولف »:

ـ يا لنسبية هذا كله! أنت كنت متأكدًا من أنك قتلتني، وأنا كنت متأكدًا من أنك هلكت بسببي في نهاية المطاف، وكلانا لم يكن مصيبًا. لكن أي معنًى لهذا، أقصد أكنا مصيبين أم مخطئين، ما دمتَ أمضيت كل هذه السنوات في ندم عبثي، وأنا في انتظار استعادة المعجزة؟ من سيعيد لنا هذا الوقت؟ ومن سيغير مصيرك أو مصيري؟ وكيف تريد بعد هذا كله أن تكون هناك إمكانية للإيمان بأوهام ساذجة ما؟

ـ يمكن معرفة أن الأوهام كلها لا جدوى منها وأن لا عزاء في نهاية المطاف. لكن، أولًا، هذا لا يفيد في شيء، وثانيًا، إن لم نكن مؤهلين لوهم ما، ولو لأقلها شأنًا، حينذاك لا يبقى إلا ما تسميه «توقف الإيقاع». وحيث إننا ما زلنا على قيد الحياة فهذا يعني، ربما، أننا لم نفقد كل شيء .

صمت «ولف» بعض الوقت مطأطئًا رأسه وساندًا إياه بكلتا يديه، كطالب مُنكب على مسألة صعبة، وحين رفع إليَّ عينيه كان فيهما مرة أخرى ذاك التعبير المخيف نفسه تقريبًا، الذي ظهر أول مرة بعد أن أخبرته أنني من أطلق عليه النار. لكن الغريب أن طريقة مخاطبته إياي لم تكن مرتبطة بذلك، فقد قال :

ـ أتعلم، يا صديقي العزيز، لِمَ قدمتُ إلى باريس؟

أي اعتراف آخر أيضًا قد يقدمه هذا الإنسان؟

ـ يتوقف على وجودي هنا حل مشكلة سيكولوجية معقدة لديَّ نحوها اهتمام مزدوج: شخصي، وهو الأهم، وتجريدي، وهو أيضًا ليس بلا معنى .

ـ اعذرني على وقاحتي: إلى أي درجة يتوقف هذا الحل عليك شخصيًّا؟

ـ كليًّا .

ـ هي ليست مشكلة إذن .

ـ إنها «كا دو كونسيانس»، مسألة ضمير إن شئت. لكن ما من غواية أكبر من غواية إجبار الأحداث على أن تجري كما تريد، من دون التوقف أمام أي شيء في سبيل ذلك .

ـ وماذا لو تبين أن هذا مستحيل؟

ـ عندها لا يبقى إلا القضاء على السبب الذي يستدعي هذه الأحداث. هذا أحد أشكال الحل، الأقل مرغوبية حقيقةً .

خرجت من المطعم في إثره مباشرة. رأيته وهو يوقف سيارة أجرة، ورأيته وهو يركب السيارة، وسمعت كيف انصفق باب السيارة بلطف بصوت ناشج. كان يومًا دافئًا من شهر مايو، والشمس مشرقة؛ وكانت الساعة حوالي الخامسة عصرًا .

عدت إلى البيت وجلست إلى طاولة الكتابة، لكنني لم أستطع العمل. أغمضت عينيَّ، فظهر أمامي الوجه المتغير للناشر اللندني: «يجب الأخذ بالاعتبار بالطبع الظروف الاستثنائية وسنك الصغيرة آنذاك. لكن لو كان تصويبك دقيقًا أكثر...»، «بنيث مي لاي ماي كوربس ويذ ذي أرو إن ماي تمبل»... رأيت مرة أخرى بوضوح خارق الطريق والغابة، كان هذا يحدث هنا، في غرفتي، بالغًا إياي عبر المسافة الشاسعة الهاربة التي تفصلني في اللحظة الراهنة عن جنوب روسيا البعيد. أشفقت بصدق على «ولف». «هذا العالم... لا أعلم لماذا فقدته». ثم بعد ذلك هذه الفلسفة المواسية: إننا نمر كل يوم عبر الكوارث الكونية ـ لكن المفجع أن الكوارث الكونية تجعلنا لامبالين، فيما أصغر تغيير في حياتنا الخاصة، التافهة جدًّا، يثير لدينا الألم والشفقة، ولا يمكن عمل شيء فيما يتعلق بذلك. «من سيعيد لنا هذا الوقت؟» لا أحد بالطبع، لكن لو حدثت هذه المعجزة لوجدنا أنفسنا في حياة أحدهم الغريبة عنا والبعيدة، ولا ندري ما إذا كانت أفضل من حياتنا أم أسوأ. لكن ما معنى «أفضل»؟ الحياة المقدرة لنا لا يمكن لها أن تكون مغايرة، وما من قوة قادرة على تغييرها، حتى السعادة، التي هي من نسق تصورنا عن الموت، ذلك أنها تتضمن فكرة الثبات. لا وجود للسعادة خارج الثبات، تلك السعادة نفسها التي لم يستطع أحد سلاطين الشرق إيجادها «لا في

كتب الحكمة، ولا على صهوة الحصان، ولا على صدر المرأة». كان بإمكان «لينوجكا» أن تقول: «فيما بعد، عندما نفترق أنا وإياك ويصبح لديَّ عشيق آخر...»، لعلها لن تخبره عني شيئًا، وربما تعلق بإيجاز قائلة: «في هذا الوقت كنت أعيش قصة غرامية مع أحدهم»؛ وهذه العبارة سوف تتضمن تلك الليالي كلها التي كانت فيها لي، ووجهها المتورد، وثدييها المنضغطين في حضني، وتصعيرة خدها في اللحظة الأخيرة وكل ما سبق ذلك... بعد ذلك سيكون حضن أحد آخر أيضًا وذاك الصوت نفسه بتلك النبرات نفسها، الحيادية تقريبًا في الحقيقة، لأنها على هذا النحو كانت تتحدث إليَّ، وقبل ذلك إلى آخرين، وربما كان وقع ذلك صادقًا بالدرجة نفسها دائمًا: يا لغنى الإمكانات الحسية ويا لفقر التعبير! أجل بالطبع، لا يمكن لأجمل الفتيات أن تعطي أكثر مما تملك، وغالبًا ما يكون لديها من القوة الروحية قدر ما يكفينا على الخلق والتصور ـ ولهذا لم يكن لـ«دولثينيا» مثيل. هناك خدعة أخرى أيضًا، وهي اعتبار أن الواقع حقيقي أكثر من الخيال. ولعل «لينوجكا» أيضًا لا تستحق تأنيبي إياها؛ إذ ما الذي يمنعني من التفكير في أنها ستكون دائمًا لي فقط، وأنها لم تحب أحدًا سواي؟ وفي حال ظنت أنها أحبت أو ستحب أحدًا، فهذا خطأ عجيب وواضح تمامًا، حتى لو لم تفهم ذلك؟ وحتى لو كان رحيلها وخيانتها محتومَين، فإن كل ما يشكل جوهرها كان ملكي في فترة زمنية ما، وهذا هو الأهم، لأن الآخرين لم يتبقَّ لهم سوى الفتات، ولن يكون في مقدور هؤلاء الآخرين أن يعلموا أبدًا أنها منحتني كل ثروتها الروحية والجسدية، التي تلقيتها منها كهدية. وبعد هذا، ماذا يمكن أن يبقى لديها أيضًا؟ شعرت فجأة أنها قريبة جدًّا مني إلى درجة أن رغبة سخيفة راودتني في أن أُدير رأسي

لأرى إن كانت هنا أم لا؛ بهذا الوضوح أحسست برائحة عطورها، وبحركة جسدها تحت الثوب، وشعرت فجأة أنني أرى عينيها وأسمع نبرة صوتها الخافتة، التي احتفظت بها ذاكرتي الممتنة إلى الأبد. لقد أحببتها أكثر من أي أحد آخر، وأكثر من نفسي بالطبع، وها قد اقتربت مرة في الحياة من المثال الإنجيلي بفضل هذا الشعور الحريص ـ لو أن الأناجيل تحدثت عن حب كهذا. «تذكر أن المسيح كان حزينًا دائمًا». وها هو طيف «ألكسندر ولف» ثانيةً. كان ثمة شيء في كاتب «آيل كام تومورو» لم أكن أود التوقف عنده، ولكن ينبغي بلوغ النهاية أولًا. شعرت بنفسي مذنبًا بلا حدود في حقه. أجل، بلا شك. لكنني مع ذلك لاحظت مرتين في عينيه هذا التعبير المخيف: في البدء حين عرف أنني من أطلق عليه النار، ونهض عن الطاولة، ثم عندما قال لي: «صديقي العزيز». في النهاية، آنذاك، في روسيا، هو من خبَّ في إثري على حصانه الأصيل الأبيض، وكان يجب أن أكون أنا الضحية لا هو. وبعد ذلك، لم يكن يعود عبثًا في أحاديثه إلى هذا التوقف الآني والتعسفي للإيقاع ـ الآني والتعسفي حتمًا .

أجل، بالطبع. كان هو بالتحديد حامل تلك الفكرة القاهرة وغير القابلة للدمار نفسها. الكاتب الإنجليزي، مؤلف «ذاك الكتاب»، طيف «ألكسندر ولف»، فارس الحصان الأبيض الآتي من «سفر الرؤيا»، الشخص المستلقي في عرض الطريق آنذاك، بعد إطلاقي النار ـ هذا الإنسان كان قاتلًا. لعله لم يكن يريد ذلك، فقد كان يبدو أذكى بكثير وأكثر تهذيبًا وثقافة بكثير من أن يرغب في ذلك. لكن لم يكن في مقدوره ألا يعرف هذه الجاذبية الحيادية للقتل، التي كنا نعرفها من بعيد

ونظريًّا أنا والذي بدأ به تاريخ العالم ـ في اليوم الذي قتل قابيل فيه أخاه. هاكم لماذا كانت مخيلتي تعود إليه بهذا العناد طوال هذه السنوات. كانت ذكراه مرتبطة بثبات بالتصور عن القتل، وبصورة مأساوية فوق ذلك بحيث كان الخلاص منه مستحيلاً، ذلك أن هذه الفكرة كانت متجسدة في شكل حتمية مزدوجة: أن يحمل المرء الموت أو أن يتوجه للقائه، أن يَقتل أو يُقتل؛ لم تكن هناك طريقة أخرى لإيقاف تلك الحركة العمياء التي كان يجسدها «ألكسندر ولف». وهذا التصور عمومًا من أشد التصورات قهرًا والتي تتضمن السؤال والجواب في الوقت نفسه، لكن البشر في الأزمنة كلها كانوا يردون على القتل بالقتل، سواء في الحرب أم في محكمة مُحلفين، في اصطدام المشاعر أو المصالح، في الانتقام أو العدالة، في الهجوم أو الدفاع .

فيمَ كان يكمن إغواء شكل الجريمة هذا بالذات بغض النظر عن كيف فُهم هذا أو أي أسباب أو دوافع خارجية استدعته؟ في بضع الثواني هذه للإيقاف التعسفي العنيف لحياة أحد ما تكمن فكرة الجبروت المستحيلة، غير الإنسانية تقريبًا. إن كانت كل قطرة ماء تحت المجهر هي عالم كامل، فإن كل حياة بشرية تتضمن، تحت قشرتها المؤقتة والعَرَضية، كونًا هائلاً ما. حتى إن رفضنا هذه التصورات، المبالغ فيها كما لو كانت تحت المجهر، مع ذلك تبقى هناك حقيقة جلية أخرى. كل حياة بشرية مرتبطة بحيوات بشرية أخرى، وتلك بدورها مرتبطة بأخرى، وحين نبلغ النهاية المنطقية لتتالي الترابط هذا، فإننا نقترب من مجموع البشر الذين يقطنون المساحة الهائلة للكرة الأرضية. فوق كل إنسان وفوق كل حياة معلق تهديد حقيقي بالموت بكل أشكاله

اللامتناهية: كارثة، تحطم قطار، زلزال، عاصفة، حرب، مرض، حادثة مؤسفة، وكلها تجليات قوة عمياء وعديمة الشفقة، تكمن ميزتها في أننا لا نستطيع أبدًا أن نحدد مسبقًا اللحظة التي يحدث فيها هذا التوقف المباغت لتاريخ العالم. «لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة...». وها هو أحدنا، الذي لديه ما يكفي من القوة العقلية للتغلب على المقاومة المخيفة لهذا الأمر، يُمنح فجأة إمكانية أن يصبح، لفترة وجيزة، أقوى من القدر والصدفة، من الزلازل والعواصف، وأن يعرف بدقة أنه في اللحظة الفلانية سيوقف ذاك التطور المعقد والمديد للأحاسيس والأفكار والحيوات، حركة الحياة المتنوعة تلك، التي لولا ذلك كان يجب أن تسحقه في مسيرها الذي لا يُردع إلى الأمام. الحب، الكره، الخوف، الشفقة، الندم، الإرادة، الهوى ـ أي إحساس وأي مجموعة أحاسيس، أي قانون وأي مجموعة قوانين ـ كلها عاجزة أمام سلطة القتل الآنية هذه. هذه السلطة قد تكون ملكي، كما أنني قد أصبح ضحيتها، وإن كنت قد خبرتُ جاذبيتها، فكل الآخرين، الموجودين خارج حدود هذا التصور، يبدون لي خياليين، عديمي القيمة والأهمية، ولا أعود قادرًا على تشارك ذاك الاهتمام تجاه كثير من الأشياء التافهة التي تشكل معنى الحياة بالنسبة إلى ملايين الناس. من اللحظة التي أعرف فيها هذا يصبح العالم بالنسبة إليَّ مختلفًا، ولا أعود قادرًا على العيش مثل الآخرين، الذين لا يمتلكون هذه السلطة، ولا هذا الفهم، ولا هذا الوعي للهشاشة غير العادية لكل شيء، ولا مجاورة الموت الجليدية والدائمة هذه .

كان هذا استنتاجًا منطقيًّا بسيطًا من تلك الفلسفة الفريدة، التي أورد لي

«ولف» مقتطفات منها، وتجليًا لفكرة الثبات تلك، غير المقبولة مطلقًا بالنسبة إليَّ، لكن التي لا يمكن مقاومتها إلا بأسلحتها هي؛ واستخدام وسيلة النضال هذه قرب إليَّ لاإراديًّا العالم الشرير والميت الذي يتعقبني طيفه منذ زمن بعيد. بمَ كان بالإمكان أيضًا مواجهة هذه الفلسفة؟ ولماذا كل كلمة من كلماتها كانت تثير لديَّ مقاومة داخلية وثابتة؟ أنا أيضًا كنت أعلم مدى هشاشة ما يسمى «التصورات الإيجابية» وأشعر به، وأنا أيضًا كنت أعرف ما هو الموت، لكنني لم أختبر الهلع أمامه، ولا جاذبيته. كان ثمة شيء يصعب تحديده يمنعني من بلوغ النهاية في مجال فهم الحقائق الأخيرة المنهك هذا. لقد فكرت بشدة في ذلك إلى درجة أنني بدأ يهيأ لي أن ضجةً ما تقترب مني، تمامًا كما لو أنها تزداد شدة وهي تتجه نحوي. بدا لي أنني أعرف جواب هذا السؤال ولطالما عرفته، وأنه كان بديهيًّا وجليًّا إلى درجة أنه لم يكن بالإمكان قط أن يظهر لديَّ شك ـ في اللحظة الأخيرة ـ في كيف ينبغي أن يكون. لكن في ذلك اليوم، في تلك اللحظة، كنت عاجزًا عن إيجاده .

تناولت لفافة تبغ وأشعلت عود ثقاب، فاشتعل وانطفأ فورًا، تاركًا خلفه رائحة الفوسفور الذي لم يحترق تمامًا. حينها رأيت أمامي بوضوح أشجار الحديقة الكثيفة في ضوء القمر النحاسي، والشعر الأشيب لمعلمي في المدرسة الثانوية، الذي كان جالسًا بجواري على المقعد الخشبي المنحني. كان باكورة الخريف وكان ليلًا. صباح اليوم التالي بدأت امتحانات التخرج. عملت طوال المساء ثم خرجت إلى الحديقة. حين عبرت رواق المدرسة الثانوية الطويل قال لي الرفاق

الذين صادفتهم إن إحدى مدرساتنا، وهي امرأة شابة في الرابعة والعشرين، انتحرت قبل ساعة. رأيت في الحديقة المعلم جالسًا على المقعد. جلست بجانبه، تناولت لفافة تبغ وأشعلت عود ثقاب، فانطفأ فورًا آنذاك أيضًا، كما الآن، وأحسست بتلك الرائحة نفسها. سألته إن كان يفكر في موت هذه المرأة وفي عدم عدالة مصيرها القاسي، إن كان بالإمكان استخدام كلماتنا المعتادة فيما يتعلق بمفاهيم مثل المصير والموت: «قاس»، «محزن»، «جائر». كان شخصًا ذكيًّا جدًّا، لعله كان أذكى من كل الَّذين عرفتهم يومًا، ومحدثًا رائعًا. حتى الناس المنغلقون على أنفسهم والحقودون كانوا يشعرون نحوه بثقة غير عادية. لم يُسئ قط استخدام تفوقه الهائل ـ النفسي والثقافي ـ على الآخرين، ولا حتى بأقل درجة، ولهذا كان التحدث إليه سهلًا جدًّا. غير أنه قال لي آنذاك :

ـ ما من وصية واحدة بالطبع يمكن إثبات عدالتها بصورة دامغة، كما أن ما من قانون أخلاقي واحد إلزاميته معصومة عن الخطأ. والأخلاق عمومًا لا توجد إلا بقدر موافقتنا على تبنيها. إنك تسألني عن الموت. لقلت: «عن الموت وكل مظاهره التي لا تُحصى». إنني آخذ الموت والحياة بصورة شَرطية، بوصفهما مبدأين متناقضين يهيمنان، في الجوهر، على كل ما نراه ونحسه وندركه تقريبًا. أنت تعلم أن قانون مقابلة كهذه هو شيء من قبيل الأمر القطعي: إذ خارج التعميمات والمقابلات لا يمكننا التفكير تقريبًا .

هذا الكلام لم يكن يشبه ما يقوله لنا في الصف. استمعت إليه من دون أن أُفوت أي كلمة .

قال :

ـ قد تعبت اليوم، ويجب أن أذهب لأنام. وأنت، هل درست وحضرت للامتحان؟ كان بودي لو أكون مكانك .

ثم نهض عن المقعد، وأنا نهضت أيضًا. كانت أوراق الشجر ساكنة، وكان الصمت مخيمًا في الحديقة. قال :

ـ لدى «ديكنز» في موضع ما ثمة عبارة رائعة. تذكَّرها، فهي تستحق ذلك. لا أذكر ماذا تقول حرفيًّا لكن معناها على النحو التالي: لقد أُعطيت لنا الحياة بشرط لا محيد عنه ألا وهو الدفاع عنها حتى الرمق الأخير. تصبح على خير .

وهأنذا أنهض عن الأريكة كما نهضت آنذاك عن المقعد الذي جلست عليه بجواره، وأكرر هذه الكلمات التي كان وقعها ذا دلالة خاصة الآن: «لقد أُعطيت لنا الحياة بشرط لا محيد عنه ألا وهو الدفاع عنها حتى الرمق الأخير ».

وفي هذه اللحظة اهتز الهاتف. رفعت السماعة. سأل صوت «يلينا نيكولاييفنا »:

ـ أين اختفيت؟ لقد اشتقت إليك. ماذا تفعل الآن؟

ما إن سمعت الرنة الأولى لهذا الصوت، الذي يغيره الهاتف عادة،

نسيت فورًا كل ما كنت أفكر فيه للتو، آنيًّا وبعمق، كما لو أنه لم يكن قط .

قلت :

ـ إنني أنهض عن الأريكة. أمسك بيدي اليسرى سماعة الهاتف، وباليد اليمنى أضع في جيب السترة لفائف التبغ وعيدان الثقاب. أنظر إلى الساعة: إنها السادسة إلا خمس دقائق. سأكون عندكِ في السادسة والربع .

تناولنا العشاء مبكرًا، قرابة السابعة. كانت ترتدي ثوبًا صيفيًّا خفيفًا. جلسنا في غرفتها وشربنا الشاي مع كعكة بالشوكولاتة لذيذة بصورة غير عادية، أعدَّتها «آني»؛ كانت تقرقع وتذوب في الفم، وكان فيها طعم لذيذ جدًّا لنوع من التوابل لا يمكن التقاطه .

ـ ما رأيك في الكعكة؟

قلت :

ـ رائعة، بيد أن فيها شيئًا ما زنجيًّا، لكنْ زنجي طيب كما يُقال، مثل تردد صدى غنائهم من بعيد .

ـ إنك تصبح عاطفيًّا في ظروف محددة جدًّا فقط .

ـ هل يمكنك القول أي ظروف هذه؟

ـ أوه! هذا بالغ السهولة. ثمة شيئان تكترث لهما دائمًا، هما: أولًا، الطعام، وثانيًا، النساء .

ـ شكرًا على هذا الثناء. أيمكنني في هذه الحالة الإعراب عن تعازيَّ فيما يخص اختيارك؟

ـ لم أقل إنني أجد هذه الصفات سلبية .

كنت ثملاً جراء حضورها، وهذا ربما كان في نظري، لأنها وجهت إليَّ ملاحظة قائلة :

ـ كم أنت عديم الصبر، كم أنت عنيف! ألا بد لك من الإمساك بي على هذا النحو بالذات، أن تطوق جسدي بيديك وتسحق أضلاعي؟

ـ حين أبلغ الستين، يا «لينوجكا»، سوف أفكر في بطلان كل ما هو دنيوي وفي عدم صدق الأحاسيس. بل حتى إنني أفكر في ذلك الآن أحيانًا .

ـ ربما فقط في غياب تلك الظروف بالذات، التي يظهر فيها ميلك إلى العاطفية .

لاحظت فيها صفة جيدة، لم تكن موجودة في بداية تقاربنا: كانت كثيراً

ما تغيظني، لكن دائمًا بمودة، من دون أي رغبة في أن تقول لي شيئًا مزعجًا حقًّا. ربما حدث هذا لأنها أصيبت بعدوى تعاملي الساخر مع كثير من الأمور، وكانت تقع في هذه النغمة لاإراديًّا. عدا ذلك، بدا لي يقينًا أنها تكتسب شيئًا فشيئًا تلك الحرية النفسية وعدم التكلف ذاك، اللذين كان غيابهما جليًّا جدًّا من قبل .

عرضت عليها السفر إلى خارج المدينة لبضعة أيام، فوافقت على الفور. غادرنا باريس صبيحة اليوم التالي بالسيارة، وخلال أسبوع كامل، من دون وجهة محددة، تجولنا على مبعدة مائة أو مائة وخمسين كيلومتراً عن المدينة. تبين ذات مرة أن الخزان قد نفد من الوقود، فبتنا في الغابة، في السيارة. هبت عاصفة مصحوبة بمطر شديد، ورأيت في ضوء البرق، عبر زجاج السيارة الملطخ، الأشجار المحيطة بنا من كل الجهات. نامت «يلينا نيكولاييفنا»، لاوية جسمها على المقعد، وواضعة رأسها الدافئ الثقيل على ركبتيَّ. أنا بقيت جالسًا ورحت أدخن؛ وعندما كنت أُنزل زجاج النافذة للحظة، لأنفض رماد السيجارة، كان يسفع أذنيَّ خفقان ما لا يحصى من قطرات المطر المنهمرة على الأوراق، وكان الجو يفوح برائحة الأرض وجذوع الأشجار المبللة. كانت الأغصان الصغيرة تتكسر بفرقعة رطبة في مكان بعيد، ثم هدأ المطر لحظة، وبعد ذلك ومض البرق ثانيةً وهدر الرعد وبدأت خيوط المطر تنقر ثانيةً سقف السيارة بالقوة السابقة. خفت أن أتحرك فأوقظ «يلينا نيكولاييفنا». كانت عيناي تغمضان، وارتمى رأسي إلى الوراء، ورحت أفكر، وأنا أغفو وأستيقظ فورًا، في أمور كثيرة في الوقت نفسه، وقبل كل شيء في أنني، كيفما سارت حياتي فيما بعد ومهما جرى من أحداث، سأتذكر

إلى الأبد هذه الليلة، ورأس المرأة على ركبتيَّ، وهذا المطر وحال السعادة نصف الغافية التي شعرت بها آنذاك. بسبب عادتي القديمة المتمثلة في إيقاف كل إحساس ينتابني ومحاولة فهمه، بحثت طويلاً لأجد من أين، ولماذا، عرفت بهذه الثقة العمياء منذ زمن بعيد أنني سأعيش ذات يوم هذه السعادة، وأنها لن يكون فيها أي شيء مفاجئ، كأنما هي أمر مشروع وبديهي كان مقدرًا لي دائمًا. وعندها خطرت لي فكرة أنني لو أردت أن أفهم هذا كله وأجد في مكان ما في الرحابة البعيدة تلك اللحظة المتخيلة التي بدأ منها هذا، لو أنني أردت تفسير كيف حدث هذا حتى النهاية، ولماذا أصبح هذا ممكنًا، وكيف وجدت نفسي عندها في الصيف، في الغابة، تحت المطر، مع المرأة التي لم أكن أعلم شيئًا عن وجودها حتى قبل بضعة أشهر، والتي من دونها، فوق ذلك، لم يكن بمقدوري الآن تصور حياتي، فسيلزمني إهدار سنوات من الكدح وإنهاك ذاكرتي بجهود مضنية، وسيكون بإمكاني، ربما، كتابة بضعة كتب عن ذلك. صخب المطر الرتيب هذا، وهذا الإحساس بالرأس المستلقي على ركبتيَّ، وقد بدأت عضلاتي تعتاد انطباع هذا الثقل المدور واللطيف الذي كانت تشعر به؛ ثقل هذا الوجه الذي كنت أنظر إليه في العتمة، تمامًا كما لو أنني أنحني فوق مصيري الخاص، وهذا الإحساس الذي لا يُنسى بالكمال المغتبط: كيف، في نهاية المطاف، كان هذا ممكنًا؟ طوال حياتي كلها رأيت كثيراً من الأمور المأساوية والمثيرة للاشمئزاز، فقد رأيت الخيانة، والجبن، والتخاذل، والجشع، والغباء، والإجرام، وقد سمَّمني هذا كله إلى درجة أنني أحسست أنني لم أعد قادرًا على الشعور بأي شيء فيه، حتى انعكاس بعيد للكمال، حتى لو كان قصير الأمد. في هذه الساعات

كنت بمنأى عن الشكوك التي لم تكن تغادرني عادة، وعن الشعور الدائم بالحزن، وعن السخرية ـ بشكل عام، عما كان يشكل جوهر علاقتي الدائمة بكل ما يحدث لي. شعرت أن لو لم يحدث ما حدث الآن لذهبت حياتي سدى، ولكانت الحال هكذا دائمًا مهما يحدث فيما بعد .

لم أشعر بهذا قط بالوضوح الذي شعرت به تلك الليلة؛ لم أستطع إلا أن أقر بأن صفاء الأحاسيس المميز هذا لم يحدث في حياتي يومًا. كل شيء كان مركزًا ـ في هذا الفاصل الزمني ـ على فكرة واحدة ووحيدة؛ ومع أنها كانت تشتمل على كل ما عرفته وفكرت فيه، وعلى كل ما سبق هذا الفاصل الزمني بالذات، إلا إنها كان فيها، بالطبع، عنصر الثبات ذاك، الذي تحدث عنه «ولف». ربما كان محقًّا في نهاية المطاف: لو لم نعرف عن الموت لما عرفنا عن السعادة، ذلك أننا لو لم نكن نعرف عن الموت لما كان لدينا تصور عن قيمة أفضل أحاسيسنا، ولما عرفنا أن بعضها لا يتكرر أبدًا، وأننا لا نستطيع فهمها بكليتها إلا في لحظتها الراهنة. هذا لا يكون مقدرًا لنا حتى تلك اللحظة، وفيما بعد سيكون متأخرًا جدًّا .

كان هذا، بشكل خاص، أحد الأسباب التي دفعتني إلى عدم إخبار «يلينا نيكولاييفنا» بقصة «ولف». لم أكن أنوي إخفاءها على الإطلاق، بل، على العكس، فكرت أكثر من مرة في كيفية إخبارها بها. لكنني لم أرغب في هذه الأيام في أن يدخل العالم الذي نعيش فيه أيُّ شيء غريب عنه ومُعادٍ له. أعتقد أن «يلينا نيكولاييفنا» فكرت على النحو

الذي فكرت فيه، لأنها لم تذكر طوال الأسبوع «لقاء الطيف» الذي حدثتها عنه .

خطر لي أكثر من مرة أنني لو دوَّنت خلال هذا الوقت كل أحاديثي مع «يلينا نيكولاييفنا» لنتج عن ذلك هراء ما غير مفهوم، مزعج بخلوه من المعنى. وقد ترافق مع دفقات المشاعر التي كانت مناسبة لهذه الفترة، والتي لم يكن يوجد شيء خارجها، وكل ما يحيط بنا كان يبدو مسليًا أو مضحكًا: زخارف ورق الجدران في الفنادق التي بتنا فيها، وجوه الخادمات وربات البيوت، أو قوائم الطعام، أو بذلات جيراننا الجالسين إلى الطاولة، أو تلك الأمور التافهة تمامًا التي كانت تشغلهم، لأن الأمور الوحيدة التي لها قيمة مهمة حقًّا لم يكن يعرفها سوانا، ولا أحد غيرنا .

عدنا إلى باريس بعد أسبوع تمامًا. كان بانتظاري عمل عاجل، وقد شاركت فيه «يلينا نيكولاييفنا» مشاركة نشيطة كالعادة. مر اليوم الأول كبقية الأيام، ولكن عندما أيقظتني في اليوم التالي أذهلني تعبير القلق الذي ومض في عينيها عدة مرات كما بدا لي. بعد ذلك أجابتني جوابًا في غير محله، الأمر الذي لم يحدث معها قط من قبل .

ـ ما بكِ؟

أجابت :

ـ لا شيء. لعله أمر غبي، لكني أريد أن أسألك شيئًا .

ـ نعم .

ـ هل تحبني حقًّا؟

ـ هذا ما يبدو لي .

ـ أردت استيضاح ذلك .

ـ كم عمرك؟

ـ لا، حقًّا، من المهم معرفة ذلك .

فارقتها في وقت متأخر من الليل كالعادة. اشتكت من أنها تعبت وقالت إنها ستأتي إليَّ غدًا الساعة الرابعة بعد الظهر. قلت لها :

ـ حسنًا، سيكون مفيدًا لكِ أن ترتاحي .

*

نمت نومًا عميقًا على الفور، لكن سرعان ما أفقت. ثم غفوت مرة أخرى، وبعد ساعة فتحت عينيَّ من جديد. لم أستطع أن أفهم ما بي، بل فكرت حتى في أنني ربما تسممت بشيء ما. فقد شعرت بشيء أشبه بقلق غير مبرر، وغامض فوق ذلك، إذ بدا بلا أي أساس بالفعل. لكن النوم جافاني تمامًا، وفي الساعة السادسة صباحًا نهضت. أمور

كهذه لم تحدث لي منذ سنوات .

بعد أن أيقنت نهائيًّا أنني لن أغفو ثانيةً، شربت كوبًا من القهوة السوداء واستحممت وبدأت أحلق ذقني. كان وجهي ينظر إليَّ من المرآة؛ وعلى الرغم من أنني أراه كل صباح في حياتي فإنني لم أستطع اعتياد دمامته الشديدة، كما لم أعتد نظرة عينيَّ الغريبة والقاسية. حين كنت أفكر في نفسي، في المشاعر التي أشعر بها، في الأمور التي كان يبدو لي أنني أفهمها جيدًا، كنت أتخيل نفسي بشكل تجريدي تقريبًا، ذلك أن التذكر البصري كان ثقيلًا ومزعجًا بالنسبة إليَّ. أفضل الرؤى، أكثرها شاعرية أو روعة، سرعان ما كانت تختفي ما إن أتذكر مظهري الجسدي ـ لعدم ملاءمته العجيبة لذاك العالم المجرد والمتلألئ الذي كان ينبثق في مخيلتي. كان يبدو لي أن لا يمكن أن يكون هناك تناقض أكبر من التناقض بين حياتي الداخلية ومظهري الخارجي، وكان يبدو لي أنني متجسد في قشرة غريبة، وكريهة تقريبًا، تعود لأحدهم. كنت أتحمل بهدوء شكل جسدي العاري، الطبيعي في الحقيقة، الذي تتحرك فيه العضلات كلها طائعة وبتناغم والتي كانت متموضعة كما ينبغي تمامًا؛ كان جسدًا عاديًّا لا علامات فارقة فيه، من دون نحول زائد ومن دون شحم زائد. لكن هناك، حيث يبدأ الوجه، كان يتحول إلى شيء مناقض تمامًا لما ينبغي أن يكون عليه، إلى درجة أنني كنت دائمًا أحول عن المرآة نظرة هاتين العينين الغريبتين وأحاول عدم التفكير في الأمر.
والآن، بعد ليلة من الأرق، كان هذا الإحساس المزعج أقوى من العادة حتى .

ما إن أنهيت ارتداء ملابسي وهممت بالجلوس لكي أعمل حتى تردد رنين الهاتف في غرفتي فجأة. نظرت إلى الساعة في دهشة؛ كانت السادسة إلا عشرين دقيقة. لم أتصور من قد يهاتفني في هذا الوقت المبكر. بعد شيء من التردد رفعت السماعة. قال صوت ثمل تمامًا تمكنت من التقاط نبرات مألوفة فيه :

ـ صباح الخير عزيزتي .

ـ ما القصة؟

ـ ألم تعرفني؟

كان هذا رجلًا يريد أن يعامَل كامرأة؛ وعندها تعرفت الصوت بالفعل. كان صوت أحد رفاقي في العمل الصحفي، وهو شخص لطيف جدًّا وفاجر جدًّا. كان يشرب من حين إلى آخر إلى درجة فقدان العقل حرفيًّا، وكان هذا يترافق دائمًا مع قصص أبعد ما تكون عن الحقيقة، فمرة أراد الذهاب ليلًا لزيارة سيناتور ما دعاه قبل أيام حسب زعمه، ومرة توجه إلى ساحة «لا بورص» لإرسال برقية إلى عمته المقيمة في لندن ليخبرها بأنه في كامل صحته، «بخلاف الشائعات التي شاعت» عنه .

تابع قائلًا بكلام أكثر ترابطًا أو أقل :

ـ كيف عرفتني؟ لعلك حزرت. التقيت رفيقًا، وقد دعاني... لا تجُرِّيني

يا «أوديت»، فأنا صاحٍ تمامًا .

«أوديت» كانت زوجته، وكانت امرأة هادئة وليست غبية. بعد لحظة سمعت صوتها. يبدو أنها انتزعت منه السماعة. قالت :

ـ مرحبًا. هذا السكران الأحمق اتصل بك في أمر .

ـ قولي له إنها مادة رائعة .

ـ المسألة أن «بييرو الأشعث»، المحسوب عليك، يوشك أن يُعتقل. فقد قال «فيليب» في التحقيق كل ما استطاع قوله. و«أندريه» («أندريه» هو زوجها) ثمل إلى درجة أنه لا يصلح لشيء. مادة رائعة بالفعل لمقال. أعرف أنك لا تحب قصص العصابات وميلودراماتهم، وتقول إن هذا أدب رديء، أليس كذلك؟ لما كنت أقلقت راحتك، لكن الأمر يتعلق بصديق طيب لنا. اذهب إلى «جان»؛ لو كنت مكانك لأخذت مسدسًا معي. أجل، من باب التحوط .

قلت :

ـ شكرًا «أوديت». اعتبريني مدينًا لكِ. أنا ذاهب .

أجابت :

ـ حسنًا .

وفرقع جهاز الهاتف .

«جان» الذي كان يجب أن أذهب إليه كان مفتش شرطة، وكنت أعرفه منذ زمن طويل بما يكفي وعلاقتي به جيدة، وكان يتمتع بموهبة تقمص مذهلة أو، الأصح، كان ضحية ازدواج شخصية فريد من نوعه. فحين كان يقوم بعمله المهني ويستجوب زبونًا دائمًا، على سبيل المثال، تكون قبعته نازلة دومًا على مؤخرة رأسه، ولفافة التبغ في زاوية فمه، ويتكلم بشكل متقطع وبإيجاز وبِرطانة دائمًا تقريبًا. لكن ما إن يتوجه بالكلام إلى محقق أو صحفي حتَى يتغير فورًا ويتحول إلى شخص لبق من علية القوم: «لو تكرمت وأتعبت نفسك مسبقًا، كما يقال، بتحليل بعض من تلك المعطيات...». يجب افتراض أنه هو بالذات من استجوب «فيليب»، الذي كان الذراع اليمنى لـ«بييرو الأشعث». بالنظر إلى المجريات كلها يرجح أن تتوجه سيارة الشرطة بعد بعض الوقت إلى «سيفر»، حيث يختبئ «بييرو»، وهذه المرة بالكاد يستطيع أن ينجو. فكرت في الأمر لدقيقة ثم رفعت السماعة واتصلت. تذكرت أن الهاتف موضوع قرب سرير «بييرو». بعد لحظة سأل صوت أنثوي حانق :

ـ ما الأمر؟

أجبت :

ـ نادي «بييرو». قولي له إن الاتصال من شارع «لافاييت ».

كانت هذه كلمة السر .

ـ إنه غير موجود، لم يعد بعد. وقد اختفى «فيليب» منذ صباح أمس الأول، ولا أدري ماذا أفعل .

قلت :

ـ لقد اعترف «فيليب» بكل شيء. حاولي أن تجدي «بييرو» أينما كان وكيفما كان وحذريه. أخبريه ألا يرجع إلى البيت. بعد ساعة سيكون قد فات الأوان .

ثم وضعت السماعة وتناولت المسدس عن طاولة المكتب وفحصته لأرى إن كان مذخرًا أم لا ـ كان مذخرًا ـ ووضعته في جيب السترة وغادرت المنزل. بعد ذلك أوقفت سيارة أجرة وتوجهت إلى حيث «جان ».

شغلني هذا كله عن ذاك القلق النفسي الذي كنت أشعر به ورحت أفكر، وأنا جالس في السيارة الأجرة، في مصير «بييرو الأشعث»، «بييرو لو فريزيه» الذي كنت أعرفه جيدًا والذي شعرت بالشفقة عليه، مع أنه لم يكن يستحق أي شفقة من وجهة نظر القضاء التقليدي، فقد كان لصًّا محترفًا وفي ذمته بضع حيوات بشرية. تعارفنا أنا وإياه قبل ست سنوات، بعد أن أطلق النار على ضحيته الأولى، الملاكم السابق «ألبرت». حينها وجدت نفسي بمحض الصدفة في المقهى ـ كان ذلك في الرابعة صباحًا تقريبًا ـ حيث مقره السري الذي لم تكن لديَّ أدنى فكرة عنه. جلست إلى الطاولة لأكتب. كان ثمة سكارى يصرخون

ويتشاجرون عند البار، ثم فجأة حل صمت القبور، وقال أحدهم ـ لم أكن أعرف شيئًا عنه آنذاك ـ بفصاحة غير عادية وبنبرة بشرية غير متوقعة، بعد هذه الأصوات التي كانت تذكِّر بزمجرة وحوش مفترسة مسعورة :

ـ أتريد أن يحصل لك ما حصل لـ«ألبرت»؟

لم يكن هناك جواب. واصلت الكتابة من دون أن أرفع رأسي. فرغ المقهى .

ـ ومن هذا؟

كان الحديث يدور عني. أجاب صاحب المقهى :

ـ لا أدري. أول مرة أراه .

سمعت وقع خطوات تقترب من طاولتي، رفعت عينيَّ فرأيت شخصًا متوسط القامة، متين البنية جدًّا، ذا وجه حليق متجهم؛ وكان يرتدي بذلة رمادية فاتحة اللون وقميصًا أزرق ويضع ربطة عنق صفراء فاقعة. أثار دهشتي تعبير الأسى في عينيه، الذي سببه، فيما يبدو، أنه سكران. لاقى نظرتي وسألني من دون أي تمهيد :

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أكتب .

ـ آها، وماذا تكتب؟

ـ مقالة .

ـ مقالة؟

ـ نعم .

بدا أن هذا أثار دهشته .

ـ هذا يعني أنك لست من الشرطة؟

ـ كلا، أنا صحفي .

ـ أتعرفني؟

ـ لا .

ـ اسمي «بييرو الأشعث ».

عندها تذكرت أنه قبل بضعة أيام كانت هناك أخبار في صحيفتين عن موت الملاكم «ألبرت»، الذي حُوكم أربع عشرة مرة وقبع في سجون

مختلفة مرارًا. كانت الأخبار معنونة بـ«دراما وسط المجرمين» و«تصفية حسابات»؛ كما جاءت الصحف على ذكر امرأة قيل إن كل ما جرى كان بسببها .

لا شك لدى الشرطة تقريبًا في أن مرتكب هذه الجريمة هو «بيير ديودونيه»، الملقب «بييرو الأشعث»، الذي تبحث عنه الشرطة الآن بكل الوسائل، والذي، حسب الدلائل الأخيرة، تمكن من مغادرة باريس وهو موجود الآن، على الأرجح، في «الريفييرا ».

وها هو «بييرو» ذاك نفسه واقف أمامي في المقهى في «بولفار سان دوني ».

ـ لم تغادر إلى «الريفييرا» إذن؟

ـ كلا .

ثم جلس قبالتي واستغرق في التفكير، وبعد بضع دقائق سأل :

ـ عمَّ تكتب عمومًا؟

ـ عن كل شيء، عن أكثر الأمور تنوعًا .

ـ وهل تكتب روايات؟

ـ لم أكتب حتى الآن، لكني قد أكتب واحدة ذات يوم. لماذا يهمك هذا الأمر؟

تحدثنا أنا وإياه على نحو وكأن علاقة صداقة مديدة تربط بيننا. سألني عن كنيتي وعن الصحف التي أكتب فيها، ثم قال إنه يستطيع أن يروي لي كثيراً من الأمور الممتعة إن سنحت الفرصة، ودعاني للمرور بهذا المقهى بالذات، وافترقنا .

بعد ذلك التقينا كثيراً، وقد روى لي بالفعل كثيراً من الأمور الممتعة. كثيراً ما اتفق لي، بفضل صراحته، أن عثرت على أدلة عجزت الشرطة عن العثور عليها، ذلك أن درايته في هذا المجال كانت استثنائية. لا شك في أنه لم يكن إنسانًا عاديًّا، فقد كان يتمتع بذكاء طبيعي، وهذا ما كان يميزه بشدة وسط «زملائه» الذين كانوا يتميزون بالقدر نفسه من الغباء. هو أيضًا، مثل معظم رفاقه بالمهنة، كان يراهن في سباقات الخيل بتهور ويقرأ جريدة «فين»، «الحظ»، كل يوم، لكنه، عدا ذلك، كان يقرأ الكتب أحيانًا، ولا سيما روايات «ديكوبرا» التي كانت تعجبه كثيراً .

قال لي :

ـ هذه كتابة! هه؟ ما قولك؟

لطالما توقعت أنه سيلقى نهاية سيئة ذات يوم، ليس فقط لأن مهنته كانت بحد ذاتها بالغة الخطورة وإنما أيضًا لسبب آخر: كان ينجذب

دائمًا إلى الأشياء غير القانونية في جوهرها بالنسبة إليه، وكان يدرك الفارق بين الاهتمامات التي يعيشها هو والاهتمامات التي يعيشها الناس الآخرون، البعيدون عنه أقصى البعد .

جاء مرة بسيارة «بيوجاتي» حمراء، وكان يرتدي بذلة جديدة ذات لون بني فاتح، مع ربطة عنقه الصفراء المفضلة، وكانت الخواتم نفسها تتلألأ في أصابعه .

سألني :

ـ ما رأيك في مظهري؟ أيمكنني الذهاب في هذا المظهر إلى مقابلة في السفارة، مثل الشخصيات التي يكتبون عنها في الصحف؟ هه؟ «لاحظنا ...».

هززت رأسي نافيًا، فأدهشه ذلك .

ـ أترى أن ملابسي رديئة؟

ـ أجل .

ـ أنا؟ أتعلم كم دفعت لقاء هذه البذلة؟

ـ لا، لكن هذا ليس بذي أهمية .

لم أعتقد قط أن تقييمي السلبي لطريقته في ارتداء الملابس قادرة على تكديره إلى هذه الدرجة. جلس قبالتي وقال :

ـ اشرح لي لماذا تعتبر ملابسي غير لائقة؟

شرحت له قدر ما استطعت. كان حائرًا جدًّا. أضفت :

ـ فضلاً عن أن من السهولة تمييزك فقط بسبب ما ترتديه. إن أي شخص لديه خبرة معروفة ـ أتفهم؟ ـ لا يحتاج إلى معرفتك شخصيًّا أو أن يسألك وثائقك، إذ فقط من خلال بذلتك وربطة عنقك وخواتمك سوف يعرف مع من يتعامل .

ـ وسيارتي؟

ـ إنها سيارة سباق. ما حاجتك بها في المدينة؟ عددها قليل، وكلها معروف لمن تعود. خذ سيارة متوسطة غامقة اللون، لن يلتفت إليها أحد .

كان جالسًا في صمت، مسندًا رأسه إلى يده .

سألته :

ـ ما بك؟

قال :

ـ أشعر بالانتكاس حين تتحدث على هذا النحو. أبدأ بفهم ما لا يلزمني فهمه. تقول إن الكتب التي تعجبني كتب رديئة. أنت أدرى بهذا مني. لا يمكنني التحدث إليك بندية، لأنني لست متعلمًا. «جو سوي آن آنفيريور»، أنا إنسان من الطبقة السفلى، هذا هو السبب. فضلاً عن أنني مجرم، والناس الآخرون أرفع مني شأنًا .

هززت كتفيَّ. أنعم إليَّ النظر وقال :

ـ أخبرني بصراحة: هل رأيك فيَّ مثل رأيي؟

قلت :

ـ كلا .

ـ لماذا؟

قلت :

ـ أنت مجرم بالطبع، ولا ترتدي ملابس لائقة ربما، وينقصك قدر معلوم من التعليم. هذا صحيح. لكن إن كنت تعتقد أن أي شخص معروف من الذين تقرأ عنهم في الصحف، سواء كان مصرفيًّا أم وزيرًا أم سيناتورًا، أفضل منك فأنت مخطئ. إنه يعمل، والأهم من ذلك أنه أقل

مجازفة. يقال له «سعادة النائب» أو «معالي الوزير». كما أنه يرتدي ملابس مختلفة، وأفضل، ولديه، بالطبع، بعض التعليم، مع أن هذا أيضًا ليس دائمًا على الإطلاق. لكنه ليس إنسانًا أفضل منك، لذا يمكنك ألا تقلق . لا أدري إن كان هذا يعزيك، لكنه كذلك في رأيي .

كان «بييرو» يحب النساء كثيراً، ومعظم «حساباته» التي انتهت نهاية مأساوية كانت بسبب النساء بالذات .

قلت له :

ـ «تو مورا بار لي فام»، ربما تهلك ذات يوم بسبب النساء، والأهم، بسبب اللواتي لا يستحققن ذلك .

لم يكن من الصعب توقع ذلك. وحتى حينها، وأنا ذاهب بالسيارة الأجرة إلى مكتب «جان»، كان مخبأه قد بات معروفًا لمن ينبغي إخفاؤه عنهم أكثر من أي أحد آخر، وهذا أيضًا كان بسبب امرأة .

كان وضعه ميؤوسًا منه. في الآونة الأخيرة تكثف نشاطه بصورة خاصة، وتتالت السرقات، وفي قسم الشرطة، أخيراً، استنفروا الجميع، كل من يُتوقع منه أي مساعدة في قضيته. المرأة التي جرى هذا كله بسببها كانت زوجة «فيليب»، مساعد «بييرو». «فيليب» كان رجلاً هائل الجثة، هرقلاً حقيقيًّا، ولا يخشى شيئًا أو أحدًا في الدنيا ـ حسب كلامه ـ سوى ولي نعمته، الذي كان معروفًا أنه يطلق النار من دون أن يخطئ الهدف .

رأيت هذه المرأة بضع مرات. كانت قد أصبحت عشيقة «بييرو» منذ وقت قريب، وأعتقد أن المفتش «جان» تمكن من الحصول على اعترافات «فيليب» لهذا السبب بالذات. بسبب الذوق الرديء الذي كان يميز كل الوسط الذي تعيش فيه لُقبت «بانتيرا». كانت لها عينان كبيرتان وحشيتان زرقاوا اللون تحت رموش زرق كذلك، وشعر أسود شديد التجعد ولا يحتاج أي تسريح أبدًا، وفم كبير جدًّا بشفتين ضخمتين مصبوغتين بكثافة دائماً، وصدر صغير وجسد رشيق، ولم أرَ قط مخلوقًا أشرس منها. كانت تعض عشاقها حتى ينزف منهم الدم، وتزعق وتخرمش، ويبدو أن أحدًا لم يسمعها يومًا تتحدث بصوت هادئ. قبل ثلاثة أسابيع هجرت «فيليب» وذهبت إلى «بييرو»، وكانت هي من رد عليَّ عندما اتصلتُ بـ«سيفر» قبل ذهابي إلى المفتش «جان ».

حين دخلت على المفتش «جان» كان جالسًا على كرسي، معتمرًا قبعته المُزاحة إلى الخلف، وكان «فيليب» جالسًا قبالته وقد أسند مرفقيه إلى ركبتيه. كان وجهه شاحبًا ومتسخًا وعليه آثار خطوط عرق جاف، وكانت تفوح منه عمومًا رائحة عرق قوية، وكان متسخًا جدًّا، وكان الجو في الغرفة خانقًا وحارًّا. قال له «جان »:

ـ أنا راضٍ هذه المرة. فعلتَ حسنًا إذ كنت صريحًا. لو صمتَّ لما دفعتُ كثيراً ثمن جلدك. الآن ستقبع في السجن قليلاً فحسب، وهذا أمر تافه بالنسبة إلى شخص بصحتك .

نظرت إلى «فيليب» فأخفض عينيه. أخرجه شرطيان، ثم قال «جان» موجهًا كلامه إليَّ :

ـ أفترض، وأُمني نفسي بأنك تشاركني فرضيتي... أعتقد أن «بييرو» نائم الآن نوم الأتقياء. كم التعابير الملائمة تكون دائمًا تقليدية! هاتفني أصدقاؤنا المشتركون وقالوا إنك تود مرافقتنا .

قلت :

ـ أجل. السيارة الأجرة بانتظاري .

ـ سننطلق خلال خمس دقائق .

كانت الساعة قرابة السابعة صباحًا حين توقفت سيارة الشرطة على مسافة بضعة أمتار عن الدار التي يقيم فيها «بييرو». كانت درفات النوافذ مغلقة، وكانت الشمس، التي ازدادت حرارة، قد بدأت تنير الشارع الضيق. في تلك الساعة المبكرة كان الصمت مخيمًا .

أوقفت السيارة الأجرة خلف سيارة الشرطة ونزلت صافقًا الباب. انهال عليَّ ضجر خامل وثقيل. تخيلت أن «بييرو» وحده، لأنه لا يستطيع، بالطبع، الاعتماد على مساعدة عشيقته في هذا المنزل المغلق والمعتم الذي لا مخرج له منه. صحيح أن بإمكانه القفز من النافذة الجانبية العالية إلى الحديقة الصغيرة الملاصقة للمنزل، لكن رجال الشرطة كانوا واقفين على امتداد سياج الحديقة الشبكي. لم تكن هناك أي إمكانية

للهرب ضمن هذه الشروط .

كان رجال الشرطة ستة، وكان على وجوه الجميع مزيج التجهم والقرف نفسه. شعرت أن وجهي يحمل التعبير نفسه .

قرع أحد رجال الشرطة وصاح بأن يفتحوا الباب .

قال له «جان »:

ـ تنحَّ جانبًا فقد يُطلق النار .

لكن لم يعقب ذلك إطلاق نار. بدأت آمل أن يكون قد تسنى لهم، ربما، تحذير «بييرو». بعد كلمات المفتش حل صمت متوتر شُعر في إثره بوجود شخص مختبئ في المنزل المظلم وفي يده مسدسه المخيف. كان كل رجال الشرطة على علم بسمعته في إطلاق النار .

قال «جان »:

ـ «بييرو»، أقترح عليك أن تسلم نفسك. سوف تخلصنا من عمل متعب، فأنت تعلم أن لا مهرب لك .

لم يأتِ جواب. مرت دقيقة أخرى من الانتظار المضني. قال «جان »:

ـ أكرر، استسلم يا «بييرو ».

عندها دوى صوت من تلك العتمة، من رناته الأولى شعرت بالبرد يسري في ظهري. كان الصوت صوت «بييرو» الهادئ والإنساني بشكل غير مفهوم، ذاك الصوت نفسه الذي أعرفه جيدًا والذي بدا لي الآن مخيفًا بشكل خاص لأنه بعد بضع دقائق سوف يصمت إلى الأبد إن لم تحدث معجزة. وكون هذا الصوت ينم عن القوة النضرة لشاب معافى، بدا أمرًا ثقيل الوطء بشكل لا يُحتمل .

قال «بييرو »:

ـ لا فرق، فلو استسلمت فالمشنقة في انتظاري. لا أريد أن أموت بهذه الطريقة، «جو فودري موريير أوترومان»، أود أن أموت بطريقة أخرى .

ما جرى بعد ذلك جرى بسرعة لا مثيل لها. سمعت كيف خشخشت الأغصان في الحديقة، ثم دوَّى صوت طلق ناري وهوى أحد رجال الشرطة، الواقفين عند السياج، مرتطمًا بالأرض. رأيت «بييرو» وهو يتسلق السياج ـ وكان المسدس الذي يمسكه بيده يعيقه ـ ثم قفز إلى الشارع، وفي هذه اللحظة لعلع الرصاص من كل حدب وصوب. لم يُصب أحد من رجال الشرطة ما عدا الشرطي الذي قُتل قرب السياج، وبدا لي ذلك مذهلاً. اندفع الجميع إلى حيث سقط «بييرو». فهمت فيما بعد لماذا لم يُصب أيٌّ منهم، فقد أصابت الرصاصة الأولى اليد التي كان «بييرو» يمسك بها المسدس وهشمت أصابعه. كان مستلقيًا في بركة من الدماء بكل معنى الكلمة، لم أعتقد يومًا أن في جسم الإنسان هذا القدر من الدم. لكنه كان لا يزال يحشرج. وقف رجال

الشرطة من حوله. دنوت منه حتى كدت ألاصقه. غرغر شيء ما لا أدري أفي حلق «بييرو» أم في رئتيه. ثم توقفت هذه الغرغرة .

لاقت عينا «بييرو» نظرتي، وعندها ترددت حشرجته وقال :

ـ شكرًا. كان متأخرًا جدًّا .

لا أدري كيف واتته القوة لقول ذلك. وقفت بلا حراك وسمعت كيف تصطك أسنانه من القلق العاجز والغيظ والبرد الداخلي الذي لا يُحتمل .

سألني «جان »:

ـ هل حذرته؟

بقيت صامتًا بضع لحظات. اختلج «بييرو» للمرة الأخيرة ومات. حينها قلت :

ـ أعتقد أنه كان يهذي .

*

أُخذت جثة «بييرو»، وغادر رجال الشرطة. أتى رجلان بعربة يد فيها رمل ونثروه على بركة الدم على الرصيف. كانت الشمس قد أصبحت

في كبد السماء. دفعت لسائق السيارة الأجرة ومضيت سيراً على قدميَّ في اتجاه باريس .

لم أكف عن الإحساس بمغص روحي وحزن بليد؛ وكنت أشعر بالبرد أحيانًا مع أن الجو كان حارًّا تقريبًا .

كانت المقالة عن «بييرو» يجب أن تصدر في الصحيفة في اليوم التالي. «نهاية مأساوية لـ«بييرو الأشعث»». تخيلت رئيس التحرير ووجهه المنفعل دائمًا وسمعت مرة أخرى صوته المتحشرج اليائس: «نصف النجاح يكمن في العنوان، فهو يستولي على القارئ، ثم يبقى عملك ألا تجعله يفلت حتى النهاية. لا أريد أدبًا. مفهوم؟». في البداية، قبل أن أعرفه جيدًا وكنت تابعًا له، كنت أهز كتفيَّ في كدر، لكني بعد ذلك أدركت أنه محق بطريقته، وأن الأدب في المقالات الصحفية أمر غير حصيف .

كما كنت أفعل غالبًا، دخلت أول مقهى لائق نسبيًّا صادفته، وطلبت ورقًا وقهوة وبدأت بكتابة المقالة عن «بييرو» وأنا أدخن اللفافة تلو اللفافة. بطبيعة الحال لم يكن في مقدوري كتابتها كما كنت أود كتابتها، وأن أقول فيها ما أرغب في قوله. بدلاً من ذلك وصفت بالتفصيل الصباح المشمس في ضاحية باريس المسالمة، والبيوت في الشوارع الهادئة، وهذه الدراما غير المتوقعة التي أعقبت حياة «بييرو» العاصفة تلك. لم أستطع، بالطبع، عدم تخصيص بضعة أسطر لـ«بانتيرا» التي لا تثير ذكراها لديَّ سوى القرف. كتبت عن «فيليب»،

وعن البار في «بولفار سان دوني»، وعن سيرة «بييرو» الذاتية، التي رواها هو لي مضيفًا كل لحظة: «هل تتصور ذلك؟ ».

ثم دخلت كابينة هاتف واتصلت بالمفتش «جان »:

ـ ألم تعرفوا شيئًا جديدًا؟

ـ لا شيء مميزًا. غير أن «بانتيرا» تؤكد أن أحدهم اتصل بها اليوم في الصباح الباكر وألح عليها بأن تحذر «بييرو ».

ـ فلِمَ لم تفعل ذلك إذن؟

ـ تقول إن «بييرو» رجع إلى البيت قبل وصولنا بدقيقة تمامًا .

ـ لا يبدو لي هذا صحيحًا، فهي مصادفة غريبة جدًّا. حتى إنني لا أدري إن كان يجدر بي ذكر ذلك في المقال. بالمناسبة، يشار إلى دورك هناك بشكل خاص... لا، لا، لم أستطع المرور بذلك مرور الكرام .

علقت السماعة، واستغرقت في التفكير بضع دقائق، وبعد الخلاص من الاشمئزاز أضفت أربعة أسطر عن «الاتصال الهاتفي الغامض ».

حين أنهيت المقال وأخذته إلى هيئة التحرير كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة ظهرًا. كانت حالي فظيعة، وحالة الاكتئاب تلك، التي كنت شعرت بها مسبقًا في الليل، حين دهمني الأرق، تفاقمت بشدة بحيث

إنني لم أكن ألحظ تقريبًا ما يجري من حولي. بموجب العادة، ومن دون أن أفكر في شيء إلا في هذا الإحساس ثقيل الوطء، دخلت مطعمًا صغيراً غير بعيد عن «بولفار مونمارتر». لكن ما كدت أضع في فمي أول قطعة لحم حتى رأيت أمامي جثة «بييرو»، وفي تلك اللحظة ضربت أنفي حرفيًّا رائحة العرق القوية التي كانت تفوح من «فيليب» في نهاية استجوابه. بذلت جهدًا خارقًا لمقاومة الرغبة في التقيؤ. ثم شربت قليلاً من الماء وغادرت المطعم قائلاً لصاحبته المندهشة إنني لست على ما يرام وأشعر بتشنجات في المعدة .

كان يومًا حارًّا، وكانت الشوارع مزدحمة بالناس. مضيت مثل سكران، محاولاً دونما جدوى التخلص من شعور لا يطاق بالضجر ومن الضباب المحسوس الذي كنت عاجزًا عن عبوره. كنت أخطو، ممتصًّا لاإراديًّا إلى داخلي هذا الضجيج، ومن دون أن أحاول فهم معناه بدقة. كان التشنج يصعد ثانيةً إلى حلقي من حين إلى آخر، وحينها كنت أشعر أن لا يُعقل أن يكون هناك ما هو أكثر مأساوية من حشد الناس هذا في الظهيرة المشمسة في جادات باريس وكل ما يحدث الآن، وأن ما أفهمه الآن وحسب هو كم أنا متعَب بشدة منذ زمن بعيد. فكرت أنه لأمر حسن الآن لو أستلقي وأغفو، وأن أستيقظ في الجهة الأخرى لهذه الأحداث وهذه المشاعر التي تقض مضجعي .

وفجأة تذكرت أن على «يلينا نيكولاييفنا» المجيء إليَّ الساعة الرابعة. كانت هي الشخص الوحيد الذي كنت أود رؤيته الآن، فقررت عدم انتظارها والذهاب إليها ببساطة. لكن حتى آنذاك، بينما كنت أصعد

درج منزلها، لم يغادرني هذا الضجر البليد والثقيل. بلغت شقتها أخيراً، فأخرجت المفتاح وفتحت الباب بقلق. لم أدرِ ما سبب هذا القلق الخاص، لكنني فهمته ما إن فُتح الباب على مَصراعيه: كانت تتناهى من غرفة «يلينا نيكولاييفنا» أصوات عالية جدًّا. شعرت برعب مكتوم، ولم يتسنَّ لي التفكير في السبب الذي قد يكون أثاره. لم يكن لديَّ وقت للتفكير. بلغني صراخ «يلينا نيكولاييفنا» اليائس؛ كان صوتها المرعب الغريب عليَّ يصرخ :

ـ أبدًا، هل تسمع؟ أبدًا !

ركضت في الممر المفضي إلى غرفتها، كما لو في المنام. رأيت في الزاوية وجه «آني» الرمادي من الخوف، لكنني لم أتذكر هذا إلا لاحقًا. أظن أنني لم أكن أعلم أنني أمسك بيدي المسدس في تلك اللحظة. فجأة سمعت قرقعة ورنين تكسُّر الزجاج؛ أعقبته طلقة وصرخة ثانية كانت خالية من الكلمات وأشبه بصوت ممتد بتشنج :

ـ آه... آه... آه ...

كنت قد أصبحت في الباب الزجاجي نصف المفتوح. رأيت من عتبته «يلينا نيكولاييفنا»، واقفة عند النافذة، وخيال رجل ملتفت نحوها نصف التفاتة ويمسك، مثلي، بمسدس. من دون أن أرفع يدي، ومن دون أن أسدد تقريبًا، إذ من المحال إخطاء الهدف من هذه المسافة، أطلقت عليه الرصاص مرتين متتاليتين. التفت في مكانه، ثم استقام وهوى على

الأرض بقوة .

بقيت واقفًا بلا حراك بضع ثوان، وكان كل شيء يتأرجح أمامي غائمًا. غير أنني لاحظت الدم على ثوبً «يلينا نيكولاييفنا» الأبيض: كانت مصابة في كتفها اليسرى. كما علمت لاحقًا، أثناء دفاعها عن نفسها رمت مُطلق النار بمزهرية زجاجية تقريبًا في اللحظة التي ضغط فيها على الزنادَ، وهذا كان سبب انحراف رصاصته .

كان مستلقيًا الآن بقامته كلها، مادًّا ذراعيه جانبًا، ورأسه على مقربة من قدميها. خطوت خطوة إلى الأمام، وانحنيت فوقه، فشعرت فجأة أن الزمن تكور واختفى آخذًا معه، بحركته المندفعة التي لا تدرَك، سنوات عمري الطويلة .

من على السجادة الرمادية التي تغطي أرضية هذه الغرفة، كانت تحدق إليَّ عينان ميتتان: عينا «ألكسندر ولف ».

الكاتب

ولد «جايتو جازدانوف» في «سانت بطرسبورج» عام 1903، وفي السادسة عشرة من عمره قطع دراسته ليلتحق بالجيش الأبيض المناهض للشيوعيين، وحارب في صفوفه حتى خروج هذا الجيش من القرم عام 1920. تبع بعد ذلك طريق الهجرة الروسية التقليدية، إلى تركيا، ثم بلغار

حيث أنهى دراسته الثانوية، وأخيراً استقر في باريس عام 1923. هناك تنقَّل بين أعمال متعددة حسب الظروف: فكان حمالاً، ومنظف عربات القطار، وميكانيكيًّا في مصنع «سيتروين»، ومُدرِّس لغة فرنسية ولغة روسية، ومُتسكعًا. كما عمل كسائق سيارة أجرة ليلي لأكثر من خمس وعشرين سنة. وقد سمح له عمله الليلي بمتابعة دراسات عليا في «السوربون»، فدرس تاريخ الأدب، والألسن، وعلم الاجتماع .

كتب أولى قصصه، «فندق المستقبل»، في القسطنطينية عام 1922، ونشرها عام 1926 في مجلة أدبية في براغ. منذ ذلك الحين، نشر المقالات الصحفية والأدبية بشكل مستمر في أهم مجلات الاغتراب الروسي، وأصدر أول رواية له، «ليلة مع كلير»، عام 1929، ونالت استحسانًا كبيراً. نشر 9 روايات، منها: «عودة البوذا» و«دروب ليلية»، و«طيف ألكسندر ولف»، وحوالي 40 قصة، وعددًا من الأعمال النقدية. وقد لُقب بـ«ألبير كامو الروسي» لتأثر كتاباته بالفلسفة الوجودية .

انتقل للعيش في «ميونيخ» ابتداء من عام 1953، حيث عمل لدى «راديو ليبرتي»، وبقي في هذه المدينة حتى وفاته جراء سرطان في الرئة عام 1971 .

أُهملت أعماله بعد وفاته، وأُعيد اكتشافها في تسعينيات القرن الماضي، فتربَّعت على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في بلدان أوروبية عديدة. «طيف ألكسندر ولف» هي أول رواية تُنشر له بالعربية .

المترجم

هَفال يوسف من مواليد مدينة القامشلي، سوريا، 1968. درس في دمشق وروسيا (سانت بطرسبورج)، حيث تعلم اللغة الروسية وظهر اهتمامه بالأدب الروسي .

أسهم في تأسيس وإطلاق عدد من المواقع الإلكترونية المهتمة بالفكر والأدب، وعمل في هيئة تحريرها، أهمها موقع «معابر». يعمل في التحرير والترجمة، بالتعاون مع عدد من دور النشر، منذ عام 2000 .

من أهم ترجماته: «ملكوت الله في داخلكم» و«الحاج مراد» لـ«ليف تولستوي»، «المعلم ومارغريتا» و«حياة السيد موليير» لـ«ميخائيل بولغاكوف»، «الأمسيات في قرية قرب ديكانكا» لـ«نيكولاي غوغول»، وغيرها .

ترجمات الكرمة

1. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد .

2. سالباتييراَ - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال .

3. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي

حبشي .

4. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي .

5. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى .

6. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد .

7. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش .

8. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي .

9. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي .

10. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس .

11. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفا يوسف .

12. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية:

صلاح هلال .

13. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة .

14. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه ع الألمانية: سمير جريس .

15. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة .

16. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي .